المقدمة

وفاء وتقدم

بقلم : محمد مزالي

تحت هذا الشعار التام فى الخامس من سبتمبر 1979 المؤتمر العاشر للحزب الاشتراكى الدستورى . ومؤتمر الحزب حدث جليل تهفو اليه القلوب وتتطلع اليه الابصار وينتظر الشعب ما تفضى اليه أعماله من اختيارات وتوضيح للسبل ، ذلك انه مناسبة عزيزة لمراجعة النفس وتحليل الوضع وتقدير المسافة التى قطعت فى طريق النمو ، توضح مسالك الحياة التى ينبغى توخيها لادراك الهدف الذى ارتسمته الامة لنفسها الا وهو أساسا الرفع من منزلة الانسان التونسى والسمو به الى اكتمال ذاته ونحت مصيره عن بصيرة وروية

لذلك كان مؤتمر الحزب دوما مجالا لتبادل الاراء ومجابهة الواقع واستجلاء حقائق الامور ووضع الاجتهادات مهما اختلفت منازعها وتعددت مشاربها على محك التجربة للخروج بها من طور النظريات المجردة الى ميدان الفعل والخلق !

ولذلك كان مؤتمر الحزب محط آمال جماهير الشعب التى تنتظر منه توضيح الرؤية ورأب الصدع وتوحيد الكلمة ... ولكن ذلك لن يكون ما لم تحدد المفاهيم وتتبلور حولها الآراء .. ويذكر بالمبادىء الاساسية التى تكون اطارا لكل تحرك مجد ومنطلقا لكل عمل مفيد .

وفى هذا المجال فقد سعدنا بخطاب المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة الذى افتتح به المؤتمر والذى جاء مرة اخرى - فى اشراق بيان ونصاعة تعبير - موضحا للسبل مبلورا للمفاهيم ، مبرزا للقيم التى لا نكون شيئا بدونها ، وذلك بصورة لا يمكن ان يتطرق اليها اللبس أو الشك !

وانه ليسعدنا ويملؤنا غبطة واعتزازا ان نكون قد وفقنا فى هذه المجلة الى الدفاع عن نفس المبادىء والتشبث بنفس القيم التى بها نكون .. او لا نكون !

لقد ابرز الرئيس « جملة من الانتسابات الحضارية التى تجعل تونس تناضل من اجل قيم متعددة متضامنة » وأشار الى اقدم تلك الانتسابات ألا وهى « حوض البحر المتوسط الذى فيه تفرض وشائج التاريخ والحضارة والمصالح الاقتصادية علاقات خاصة بين مختلف الشعوب العائشة على ضفافه . » وذكر بانتسابنا الى « القارة الافريقية التى تشدنا اليها جملة من المصالح وجملة من الروابط الثقافية والروحية » ثم ركز على « ان شعب تونس دينه الاسلام وهو عروة وثقى بينه وبين سائر الشعوب المسلمة لا انفصام لها ، مهما بعدت الشقة او تغيرت الاوضاع الاجتماعية والسياسية . ذلك اننا مسؤولون جميعا عن مصير هذه العقيدة وعن مستقبل الحضارة الاسلامية » ودعا فيما دعا اليه الى الاجتهاد .. والى تضافر الجهود لاجلاء الدين من صدإ القرون البالية . حتى نعيد الى حضارتنا ما ينبغى ان تتصف به دوما من حركية وتقدم وابداع » ثم تخلص من كل ذلك الى ابراز وجه تونس الحقيقى حضاريا وثقافيا وانتماء . وجاء بفصل القول فى غير اغماض ولا التواء فى هذه الفقرة الواضحة ، الرائعة البليغة : « ولكن تونس فى كل ذلك ، سواء نظرنا الى ابعادها المتوسطية ، او الى انتسابها الافريقى ، او الى انتمائها الاسلامى ، انما هى عربية اللغة وعربية الثقافة ، وعربية المصير ، تستمد قوتها مباشرة من قوة المجموعة العربية . وكل ما يهدد كيان المجموعة او ينال من مصالحها فتونس تتداعى له بالتعاطف والتضامن والتناصر ، مهما اختلفت احيانا مشارب الدول ، او تناقضت مصالحها العاجلة .»

ما أروع اداة الحصر وما ابلغها حينما نزلت هذه المنزلة .. من القوة والتأكيد في قوله : «انما هي عربية اللغة ، وعربية الثقافة ، وعربية المصير» فهل هناك تحديد للمفاهيم أعمق من ذلك وأقوم قيلا ، وهل بعد ذلك ما يدعو بعضهم الى المراوغة والتأول والزيف ؟

إن ما قوبل به خطاب الرئيس الحبيب بورقيبة من حماس واعجاب كان ابلغ تعبير عن شعور هذا الشعب ونبل محتده وقوة ايمانه ..

ذلك أنه جاء ترسيخا لعقيدة ، وامتدادا وتذكيرا بهوية كانت ، منذ نصف قرن ، منطلق نضال المجاهد الاكبر والحزب الحر الدستوري في جهاده ونضاله ، من أجله استشهد شهداؤنا ، ومات أبطالنا ، واستبسل شعبنا ايمانا بأن شعبا بدون قيم شعب ممسوخ ، وأمة مقطوعة الجذور عن أصلها أمة خلاء ، تتقاذفها الاهواء وترسى بها الريح حيث تشاء ...

وهل معركة التجنيس والصمود في وجه الاستعمار الفرنسي شيء آخر غير التشبث بقيمنا والذود عن هويتنا والدفاع عن أصالتنا ، انتسابا ومنزعا وثقافة وحضارة ومصيرا ؟...

وهل ما يخيل لبعضهم من ازدهار اقتصادي ونمو مادي بدون استرجاع للذات واعتزاز بالقيم شيء آخر غير سراب خلب وسحاب جهام وطلاء زائف ؟

ان ما صدع به الرئيس الحبيب بورقيبة في قوة ونبل بيان انما هو دعوة صارمة لايمان صادق يسمو بنا عن ايمان الاعراب الذين قال عنهم تعالى : « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم »

فليعتبر شبابنا بهذا النداء وليتشبع بهذه الروح وليجد في ذلك نبراسه ودستوره !

اما نحن الذين ما فتئنا ـ منذ بروز هذه المجلة التى تدخل بهذا العدد سنتها الخامسة والعشرين ـ نسعى الى الدفاع عن قيمنا الحضارية وننادى باسترجاع ذاتنا فى غير خوف ولا ضعف ولا تردد ، فاننا نعبر عن اعتزازنا بما جاء ـ مرة اخرى ـ على لسان المجاهد الاكبر من تاكيد وتوضيح ، كما نعبر عن ارتياحنا لما جاء على الصعيد الفكرى فى لائحة ميثاق الرقى اذ « يسجل المؤتمر بكل ارتياح المجهودات المبذولة من طرف الدولة لتربية الانسان التونسى تربية اصيلة تتجاوب ومتطلبات البلاد والقيم الحضارية للمجتمع حتى يعيش عصره بكل ثقة فى ظل مجتمع متوازن ومتضامن وما حققته السياسة التربوية من ديمقراطية واصالة وتفتح فى التعليم وخاصة توجيهه نحو التقنية وربطه بالواقع والمخططات الانمائية للبلاد ».

لقد بقى بعد هذا أن نكون صادقين فى ايماننا مخلصين فى أعمالنا جادين فى أقوالنا وأن نخرج بما عقدنا العزم على ادراكه من حيز النية الى الفعل .. وان نجسم مبادئنا تجسيما يضمن لهذا الشعب ما هو جدير به من تقدم وكرامة وسؤدد .

وما التقدم الحق الا ضرب من البر لأعمق أعماق ذاتنا ووفاء صادق لماضينا الذى به نعبر الى اشراق مستقبلنا .

محمد مزالي

تقـــولـيــن ...

شعر : أحمد اللغماني

تقولين ـ يا من ترى ما يخبىء سرى ، وتقرأ ما فى ضميرى ـ
تقولين : حدق ! فما زال قطـ ـر الندى عالقا بشفاه الزهور
وما زال ثوب الفراشة رشـ ـة ضوء على صفحة من حرير
تلملم أطرافه ثم تنشر لم الانيق ، وتشر الحبير
وما زال فى قامة السرو عند هبوب الصبا بعض مبس مثير
تلفت الى كل غصن وريق ولا تلق عينا لغصن حسير

* * *

تقولين ـ يا من تعى ما أفكر فيه ، وتسمع ما لا أقول ـ
تقولين : انصت كما ينصت الأنـ ـبياء اذا ما أهل النزول
فكم نغمة قد تصم المسامـ ـع عنها فليس اليها سبيل
تلم بسمعك إلمام طيف شفيف الرؤى واليه تؤول
فانصت ! وأنصت ! فما غار لحن رخيم ، ولم يتلاش هديل
ولا تلق سمعك للغو ، واربأ به أن يرين عليه الفضول

* * *

تقولين ـ يا نفحة الورد تمز ج أنفاسها بضياء الصباح
تقولين : عش البنفسج ما زا ل فى مأمن من هبوب الرياح

وما زال للجو مذراة عطر   وما زال للنحل ابريق راح
وما زال زهر الروابى يغربل   اشذاءه فوق هذى البطاح
دؤوبا على طبعه ؛ ذا سخاء   مقيما على خلقه : ذا سماح
عطاء متاحا لكل جسور   وما هو للمنزوى بمتاح

* * *

تقولين ـ يا نجمة فى سمائى   تنور ليلى وتجلو طريقى ـ
تقولين : إنا سنبقى بخير   برغم التجنى ، ورغم العقوق
فما هى الا سحابة صيف   ونبشر آفاقنا بالشروق
تجاوز ! فحسبك أنك فكر   طليق يضيق بغير الطليق
يحلق لا مستعير الجناح   ويسطع لا مستعير البريق
تجاوز ! وحلق ! هواى عريض   كعرض السماء ، فلست بضيق

أحمد اللغمانى

الفكر تدخل سنتها الخامسة والعشرين

بهذا العدد تقدم مجلة « الفكر » لقرائها الكرام العدد الاول من سنتها الخامسة والعشرين عازمة على أن يتواصل معهم مسارها الملتزم بالمواقف الصادقة ، الواعد بالعمل الجاد من أجل ثقافة عربية أصيلة وغد مجيد للانسان فى كنف الوفاء والتقدم .

سعيد أبو بكر

بقلم : مصطفى الحبيب بحري

بمناسبة ذكرى ميلاده

أحداث ومؤثرات :

ان الاحداث التى كان سعيد أبو بكر قد مر بها فى حياته بسيطة فى ظاهرها لا تعقيد فيها . فهو قد ولد ببلدة (المكنين) فى الثامن والعشرين من شهر اكتوبر سنة الف وثمانى مائة وتسع وتسعين ، وهو لم يتجاوز المرحلة الابتدائية من دراسته ، وقد انتقل اثر انقطاعه عن المدرسة الى سوسة حيث اشتغل بمكتب الاستاذ راجح ابراهيم المحامى ، وهو أخيرا ينكب على الاشتغال بالصحافة سواء عن طريق المشاركة او بالاشراف على مجلته (تونس المصورة) الى ان وافته المنية بتونس العاصمة فى التاسع والعشرين من جانفى سنة الف وتسعمائة وثمان واربعين .

هذه أحداث فى سطور لحياة امتدت ثمانية واربعين عاما وبضعة أشهر ، لو تأملنا خطوطها الفرعية لادركنا ان صاحبها لم يعش البساطة التى لونت ظاهرها ولعلمنا انه كان قد مر بتجارب ومؤثرات كانت لها خلفياتها فى صقل موهبته الشعرية ، وطابعها المميز فى انتاجه الادبى عامة .

أما عن هذه المؤثرات فيمكن أن نقول : ان بعضها يعود لطيب منبته كما يعود بعضها الآخر للمبادىء الدينية والقومية التى كان قد تلقاها فى المدرسة الابتدائية . فقد كان لهذين العاملين أثر كبير فى توجيهه الوجهة الدينية والقومية فى حياته الادبية والعملية .

وبعض هذه المؤثرات أيضا يعود الى العمل الذى كان قد باشره فى مكتب الاستاذ راجح ابراهيم . فهو باطلاعه على الكثير من القضايا الاجتماعية استطاع أن يتعرف على خبايا النفس الانسانية وقضايا الوجود الاجتماعى ،

مما بدا أثره واضحا جليا فى شعره خاصة منه ذلك الذى يمثل الجانب الاجتماعى .

بل ان أثر هذه الحياة العملية ليبدو واضحا حتى فى الاسلوب فقد غلبت على آثار الشاعر الصبغة التعليلية القانونية واللهجة التقريرية الخطابية ، مما سنتبينه عند الحديث عن المنهج الفنى .

ومن هذه المؤثرات أيضا اشتغاله بالعمل الصحفى فقد هيأ له هذا العمل سبيل التعرف على كثير من المشاكل التى كان الشعب يعانيها سواء حينما كان يباشره من بعيد أو حينما أصدر مجلته (تونس المصورة) التى برز الى الوجود اول عدد منها سنة 1937 وكانت لسان الادب والفكر والاجتماع والسياسة فى ذلك الوقت .

هذا الى جانب تأثير الاحداث التى كان الشعب يمر بها فى حياته المريرة وفى نضاله ضد قوى الطغيان والشر وفى صراع قواه التقدمية مع عناصر الفساد والرجعية وما الى ذلك .

لمسات اجتماعية :

ان الاغراض التى كان الشاعر سعيد أبو بكر قد عالجها فى شعره ذات ألوان متعددة . فمنها الذاتى ومنها القومى ومنها الاجتماعى والمعروف هو أن الصبغة الاجتماعية كانت غالبة على شعره حتى لقد عده البعض ـ فى اجتماعياته ـ قرينا لحافظ ابراهيم ومعروف الرصافى وان كان يمتاز عنهما بتجديده فى القوالب الشعرية .

وعلى هذا الاساس فالواجب علينا أن ننظر فى اجتماعياته أولا ، ولتكن النظرة الاولى الى موقفه من قضايا المرأة .

أ) قضايا المرأة :

لقد أولى سعيد أبو بكر قضايا المرأة اهتماما كبيرا فى شعره حتى لقد ناهزت قصائده عنها العشر وربما تجاوزتها .

وقبل النظر فى هذه الآثار أرى الواجب يدعونا الى النظر ـ ولو بايجاز ـ فى وجود المرأة عصر سعيد وقبله :

قد يصح القول بأن هذا الوجود كان ميتا يسمم الهواء الذى تتنفسه الاجيال فتنشأ واهنة القوى مقيدة التفكير عاجزة عن الخلق والعمل غارقة فى الذل والتبعية ٠

أجل ، فالوجود النسوى فى حياتنا كان منذ فترة ما قبل الاحتلال وجودا يمثل الجهالة والانحطاط ، تغمره الخرافات والاوهام وتسيطر عليه المعتقدات البالية ٠ وقد عمق مأساة المرأة فى هذا الوجود أن أخذ الاستعمار منذ احتلاله لتونس فى تمكين تلك الخرافات والاوهام والمعتقدات فى نفسها ، بل وفى نفوس الرجال ايضا ٠

وهكذا تظافرت مساعى الاستعمار مع وجود المرأة الميت فى توليد الاجيال المتخاذلة المستذلة . ومن أجل هذا كان حماس الشاعر سعيد فى الدفاع عن المرأة وفى الدعوة الى تعليمها وتمكينها من ممارسة حقوقها المشروعة ٠

قال عنه الاستاذ راجح ابراهيم :

« سعيد يحارب الاستبداد والبدع والمروق والمدنية الفاسقة ٠٠٠ يناضل عن المرأة ، ويدعو لتحريرها وتثقيفها تحت راية القرآن وفى دائرة حدود الشريعة ٠ »

ومن أهم القضايا التى وقف الشاعر فيها الى جانب المرأة قضية تعليمها ، فقد كان يؤمن بأن الجراح العميقة التى تثخن جسد الشعب ما كان يمكن ان تكون لو أن المرأة قد أخذت نصيبها من المعرفة والثقافة . وها هو فى قصيدته (المرأة والعلم) يصور أثر الجهل فى تكبيل الشعب وتأخر المجتمع واستعباد الوطن ليقول بعد ذلك واصفا الدواء الشافى من هذه الادواء :

هلموا وحلوا فى البلاد مدارسا ... ليصعد اسباب المعالى نجيبها
ولا تحرموا بنتا رضاعة ثديها ... فلا شىء فى تلك الديار يعيبها
هى ابنة أيام الصبا ، ولعلها ... تكون غدا أما يذاق حليبها
ستبدى‌رجالا تسحر الكون اذ ترى ... بان العلا ما خاب قط قريبها
هى الام يكفى أن نراها تحفنا ... بواجبها والله عنا يثيبها
فيشدو هزار السعد فوق رؤوسنا ... وينشدنا أفراحنا عندليبها

ان الشاعر كما هو واضح من هذه الفقرة كان يرى ضرورة تعليم المرأة للخروج بالبلاد من التخلف ، فهى التى ستنجب رجالا يدركون معنى المعالى فيسعون اليها ويطلبون قربها ، وهى التى ستطلق صوت هزار السعد بالغناء

وعندليب الافراح بالانشاد ... وتحميل الشاعر للمرأة مسؤولية صلاح النشء يمكن تلمسها أكثر فى قصيدته (حجور الامهات) فهو فيها يذهب مذهب حافظ ابراهيم اذ يقول :

الام مدرسة اذا أعددتها   أعددت شعبا طيب الاعراق

بل انه يسمو بها فوق مستوى المدارس العادية ، ولذلك فهو يلح على الام حتى تتفرغ الى تكوين ابنها وتنشئته تنشئة علمية وطنية أخلاقية ، وبذلك تكون عقدا نفيسا يحلى جيد الشعب لا خنجرا مسموما يوجه الى نحره .

يقول فى هذه القصيدة مخاطبا الام ومتحدثا عنها وعن ابنها :

يا أم انكما ـ فاعلمى   أجل من المصلح الاكبر
وانكما قائمان معا   لدينا بدوركما المخطر
فان تصلحا كان اصلاحنا   وهيهات للغرب ان يزدرى
والا فنحن باوطاننا   على الارض موتى ولم نقبر
فلا تذبلى غصن ايامه   بحجرك غضا ألا فاحذرى
فأنت لديه كعقد نفيس   على عنق الشعب أو خنجر
وان تحمليه فآمالنا   حملت ، وحقك أن تفخرى
فزيحى عليه لثام الجها   لة يشخص الى الافق المقمر
وبثى له روح نهضتنا   ترى خير شهم وحر جرى
فما الطفل بين يدى أمه   سوى خاتم الطفل فى الخنصر
وما نفسه غير مزرعة   ومهما تشأ فوقها يبذر
وما حجرها غير مدرسة   تعالت عن التخت والدفتر

وينظر الشاعر الى السجن الكبير أو القطر التونسى ـ كما صرح هو بذلك فى بيت من قصيدته (السجن الكبير ووظيفة المرأة فيه) ـ فيؤمن بأن رسالة المرأة انما هى خلق رجال يحطمون أبوابه ويهدمون أركانه حتى يتم الانقاذ وتشع الحرية ...

وهو بعد أن يعرب عن نفوره من الجمال الجسدى للمرأة يتخلص الى تحديد الرسالة التى عليها أداؤها فيقول لها مخاطبا :

هاك الشبيبة لا تستعظمى عملا   فيهم ، فاصباحنا منهم بمنبلج
كونى لزهرتهم طلا يبللها   حتى تضوع بما نرجوه من أرج
كونى لهم باعث التهذيب فى صغر   يخطو بأمتنا للنقه والفرج

قولى لهم : قوموا المعوج تكتسبوا ... يوم الجزاء قضيبا غير ذى عوج
كونى على قدم ما بين مفتكر ... فى حقه باذلا جهدا ومحتلج
هيا ادخلوا بسلام آمنين ، فلا ... خوف ، فقوتل من يأبى ولم يلج
وشل ساعد من حتى بأنملة ... لم يخدم الشعب بين الكد والهزج

ودعوة الشاعر الى تعليم المرأة صاحبتها دعوة أخرى ملحاحة تؤكد على وجوب تمكينها من اختيار زوجها ، وهى دعوة لم تولدها الرغبة فى مسايرة التيار العام ولم تأت عن طريق التأثر العاطفى بما كان أدباء المشرق ومفكروه ينادون به آنذاك .

وفى رأيى أن ملاحظته لبعض المآسى التى نشأت عن الزواج الاجبارى ، والتى صورها فى بعض قصائده هى التى رسخت الفكرة فى ذهنه ودفعته الى الدعوة اليها . وهذا هو ما ذهب اليه الاستاذ مصطفى رجب فى كتابه (شاعران) اذ يقول :

« عندما يتكلم سعيد عن الفتاة لم يكن مدفوعا بحكم العاطفة ، ولكنه كان مدفوعا بحكم الواقع فقد شاهد عدة ضحايا من جراء قهر البنت وعدم مشورتها وحريتها فى الانتخاب » .

ويمكن لنا أن نستدل على استخلاص الشاعر للعبرة من الواقع ، من هذه الابيات الثلاثة التى وضع لها عنوان (اعتبروا) والتى جاء فيها :

زفوا الفتاة لشر رغم رغبتها ... فيمن تحب ومن أميالها سخروا
خطوا الصداق فكان الخط من ذهب ... والطرس من فضة والبشر ينتشر
لكنهم بعد حين سطروا بدم ... رسم الطلاق ألا يا ناس فاعتبروا

واعتبار الشاعر بالواقع واتعاظه بالاحداث يمكن أن نلمسهما أيضا فى قصيدته (ضحية الطمع) التى صاغها فى قالب قصصى والتى استهلها بمقدمة تمهيدية توجه بها الى الشعب يدعوه فيها الى تأمل الاحداث لاستخلاص العبرة منها كما ينهاه عن لوم الدهر ويأمره بفحص أعماله التى هى سبب ابتلائه :

لا تلوموا الدهر فى أعماله ... ليس للدهر سوى تلك العبر
وافحصوا أعمالكم كى تبصروا ... شؤمها يبدو عيانا للبصر

ويأخذ الشاعر اثر المقدمة فى استعراض أحداث القصة موضوع القصيدة فيتحدث عن الحب الذى جمع بين ابراهيم وبين زينب وعن تعاهدهما على الزواج ، وعن تقدم ابراهيم الى أبى زينب خاطبا ، وعن رفض هذا الاب القاسى ، وعن المصادمة التى وقعت بينه وبين زينب وعن المصير الذى انتهت اليه حياة زينت اذ أصبح الاهل ذات يوم وقد وجدوها جثة هامدة أخمد شعلة الحياة فيها طمع الاب وتقاليد المجتمع ·

وعلى لسان زينب كان الشاعر قد أرسل هذه الصرخة المتمردة في حوارها مع أبيها :

« لست أرضى غير ابراهيم لى   قولها · وهو سداد فى سداد »
« فاتركونى أنتخب زوجى ولا   تمنعونى اننى لست جماد »
« انه نصفى فلا يختاره   غير نصفى تلك آراء الرشاد »
« ثوب قطن والهنا أليق بى   من نسيج الخز فى ثوب الحداد »

ومثل هذه القصيدة في موضوعها ومنهجها القصصي بل وحتى في جوهر احداثها قصيدته الاخرى (ضحية التعنت) ولذلك فانني لا أرى ضرورة للحديث عنها وسأتجاوزها للانتقال الى جانب آخر يتصل بقضية المرأة وان كان الشاعر لم يعالجه مباشرة وانما اشار اليه مجرد اشارة ·

هذا الجانب هو ذلك الذى يتعلق بالتكاليف الباهضة التى تثقل كواهل الآباء فى حفلات الزواج ، والذى تعرض اليه فى قصيدته (البدع والاسراف)

ومن الحوار التالى بين الاب وبين ابنته عزيزة يمكن لنا ان نستشف المأساة التى كانت المرأة ــ وما زالت ــ تعانيها ، بل ويعانيها الآباء أيضا ·

حتام لا أهدى عروسا يا أبى   يا من تقضت بالبكا ليلاته
فتنهد المسكين والعين لها   مالت ، وقد زادت به زفراته
بنتاه رفقا لا تزيدى فى أسى   قد أحكمت فى بعضها حلقاته
بنتاه مهلا ليس لى من أصفر   للعرس تبدى فرحتينا ذاته
بنتاه ان العرس أمسى ضيغما   عن كل مكلوم الجوى وثباته
قد عاث فيه المفسدون كأنهم   قد أحجمت عن عينهم غياته

وسعيد بالرغم من تحمسه المندفع فى دعوته الى تعليم المرأة والى تمكينها من حرية اختيار زوجها كان من المعارضين لسفورها وتبرجها فى الاسواق ،

وهو وان لم يخصص لذلك القصائد المطولة كما فعل فى أغراضه الاخرى فان الروح الصريحة الساخرة التى امتازت بها تعوض عن الطول .

يقول فى بيتين له وضع لهما عنوان (احفظ شريكتك) مخاطبا الرجل الذى يطلق العنان لزوجته ويهىء لها ان تنصب الشراك للناقمين على الروابط الزوجية :

عاينت زوجتك يا مغرور ناصبة للناقمين على زوجاتهم شركا
فاحفظ شريكتك الحسناء آمنة أولا فانك فيها والملا شركا

وهو كما دعا الزوج هنا حتى يحفظ زوجته ويأمن مشاركة الناس له فيها ، يقدم فى أبيات له أخرى وضع لها عنوان (صدفة) هذه اللوحة لامرأة خرجت تبحث عن زوجها ، ولزوج غير زوجها خرج يبحث عن زوجته يقول فيها : ان هذين الزوجين الغريبين قد تلاقيا صدفة ، فكان حديث ، وكانت مصاحبة ، وكان تواعد على لقاء الغد :

خرجت تفتش زوجها مدفوعة بيد الخصاصة ويحها من ذى اليد
ومشى يفتش غيره عن زوجة خرجت لعرض خدها المتورد
فتلاقيا وتكالما وتصاحبا وتفارقا متواعدين الى الغد

وهكذا يكون سعيد قد نظر الى وجود المرأة باعتباره الوجود الذى ترتبط به حياة الناشئين ومستقبل الامة ، فاهتم كثيرا بالدعوة الى تعليمها ، والى حريتها فى اختيار الزوج الذى تراه ، ولكنه مع ذلك كان قد وقف موقفا معارضا من سفورها وتبرجها فى الشوارع مما يبدو وكأنه ارتداد عن مناصرتها

والحقيقة التى لا تنكر فى نظرى أن هذه المعارضة لا تتناقض مع الموقف المناصر ولعل الشاعر قد أطلق لسانه بها لعلمه أن المرأة لم تكن قد تسلحت بعد بسلاح العلم الذى يهىء لها الدفاع عن نفسها والذود عن حرمتها فى معترك الحياة الزاخر ...

ب) حرب على الفقر :

الوجود التونسى فى عمومه كان وجودا يغلفه الفقر والعدم فقد كانت عموم مصادر الانتاج بأيدى الاجانب : الشركات والمعامل والاراضى ... وحتى الادارات لم تكن تضم الا القليلين من التونسيين وعلى ذلك فباستثناء هؤلاء

القلة من الموظفين كان الشعب اما يعيش عيشة السخرة او يتخبط فى ظلام البطالة .

ومن هنا كانت انطلاقة سعيد ، فهو قد لاحظ الظلم الاجتماعى يمد أصابع الاخطبوط فى كيان الشعب يمتص بها دماءه فوقف مع المضطهدين يناضل عن وجودهم الانسانى ، تارة بايقاظ حمية الشعب واثارة نخوته وعواطف النبل الكامنة فيه ، وتارة أخرى بالتهجم على السلطة الاستعمارية والتنديد بأعمالها والتشهير بفظائعها .

ولعل من أبرز قصائده فى هذا المجال قصيدته (واقعة بنزرت) التى كان قد قالها اثر التصادم الذى وقع فى 11 سبتمبر من سنة 1924 بين القوة الاستعمارية وبين عمال الرصيف ببنزرت الذين أضربوا عن العمل تضامنا مع اخوانهم عمال رصيف تونس .

واذا كانت هذه القصيدة ذات مسحة سياسة بالنظر الى الابيات التى تصور الصدام فانها باعتبار تحليل أسبابه ونتائجه لا يمكن أن تخرج عن النطاق الاجتماعى .

وقد علقت احدى الصحف الوطنية الصادرة آنذاك على هذه القصيدة فقالت :

« انها تمثل الفكرة الاشتراكية فى الشعر والدفاع عن حقوق العمال والاشفاق عليهم » .

يستهل الشاعر قصيدته هذه بالاعلان عن الثورة والتمرد الى أن يتلمس التشابه بين حادثة بنزرت وواقعة الجلاز فيشير الى ذلك والى أسباب الحادثة اذ يقول :

نرى حادث الجلاز فيه مجسما ... ونهر دماء الابرياء به يجرى
وقد فاتنا انا نشاهد بعده ... نظيرا ، وان الدهر أشبه بالدهر
الى ان تعاصى القوت عن كل عامل ... بأطفاله كم أنبت الجوع من ظفر
تراهم اذا حلوا المآزر هيكلا ... تداعت به الاركان للوقع والخر
يمدون كفا أيبس الفأس غضها ... الى الاجر ، لكن لا سبيل الى الاجر
لذا اعتصبوا والاعتصاب مطية ... الى الحق لا تدرى التباطؤ فى السير
فأرعد رأس المال واشتد غيظه ... وأصبح فى ثوب من العجب والكبر

والـقى لآذان الحكـومـة أمـــره   وأنى لها الاغضاء عـن ذلـك الامر
فألقت يـد الفـولاذ عنهـم وسولت   لها نفسهـا اخضاعهـم بيد الجبـر
وأملت عـلى مـن يحفظ الامن أمرهـا   بتذليلهـم فاهتز مـن شدة البشـر

وبعد ان يصور الشاعر الصراع بين قوة الامـن وبيـن العمال المعتصبين يتخلص للحديث عن أحد الضحايا الشهداء ، كان قـد خلف عشرة أطفـال ضعفاء أخذوا يندبونه ويبكون حياتهم بعده وهم يرددون :

أنشكـو ؟ الى مـن ؟ أم نمـد أكفنـا   بأوطـاننـا ذلا الى الحنظـل المر ؟
ومـن كدنـا تبنى القصـور لسادة   أوامرهم : لا تقربوا ساحـة القصـر
ألـم يعلموا أنـا نظرنـا الى الثـرى   كثيرا ، وأنـا ننظر اليوم للبـدر ؟
وأن الالى بالامس كانـوا عبيدهـم   قد انقلبوا للشهم فى صـورة الحر
ألا فليكونـوا كيف شاؤوا فاننـا   عرفنا سبيل الشر من سبل الخيـر
فلا النار تشفينا ولا الجور صالـح   لاخمـاد نـار ان أضافـوه للجمـر

ومن روائع قصائد الشاعر الاجتماعية فى هذا المجال أيضا قصيدته (رفقا بالانسان) التى حاول بها ان يدحض مـا كان الاستعماريـون يدعونـه مـن سياسة الرفق ـ اذ أنشأوا جمعية الرفق بالحيوان ـ والتى لجـأ فيهـا الى السخرية من اصحاب هذه الجمعية والى ابراز مأساة الانسان ، عـن طريـق المفارقات التى اقامها بين واقع الانسان المرير وواقع الحيوانـات السعيـد ، بين نظرة المنتمين لهذه الجمعية المحقرة للانسان ، وبين نظرتهم المتعطفة على الحيوانات :

جمعيـــة الـرفـــق بالسنـور والـديــك
ماذا عـــن الرفـــق بالانسان يلهيـــك ؟
يرضيـــك عيشهمـا والامـــن فـــوقهمـا
مرحى ، فهل عيشه فى الضنـك يرضيـك ؟
يلقى ابـن آوى لديـك المشفقيــن ، فهـــل
يلقى ابـــن آدم حظـــا فى مساعيـــك ؟

كفكفى دمـــع الكـــــلاب   وامسحى دمـــع الحميـــر
واذا المـــرء اشتكـى الـــ   ـجـوع بالدمـع الغـزيـر
فاطعمى القطـة لحمـا ربمــا   لم يذق ما دونه منذ سنين

ويستمر الشاعر فى بث هذه الروح الساخرة حتى ينتهى الى المقطع الرابع فاذا به يتحول من السخرية الى الدعوة الصريحة باسعاف الانسان وانتشاله من الهوة التى يعيش فيها فيقول :

مـــدى الاوادم بالاسعـــاف واسعى الى
نحـو الاولى فت فيهـم حـول ناديـك

وارمى الى الرفـــق بالانســان حتى اذا
جـاء الحسـاب انثنى يطرى مراميـك

يكفى ولا تـذكـرى الانعـــام الا متى
أمسى ابـن آدم مرسومـا عـلى فيـك

فـارفـعى عـنـــــه الاذى قبـل شـــاة او بعيــــر
واجعـــــلى الهمـــــة في ذلـــك الامـــر الخطيــــر
واستـريحـى بعـد هـذا انـه حاسب للبكم ما قد تحسبيـن

وما دمنا بصدد الحديث عن محاربة الشاعر لظاهرة الفقـر ، فلنعرج عـلى قصيدته (حياة اليتيم) التى ألقاها فى احدى حفلات الجمعية الخيرية والتى يبدو فيها تأثره بالرصافى واضحا اذ كان قد انتهج منهج قصيدته (اليتيم فى العيد) سواء فى الاستهلال او فى الخاتمة او فى الاسلوب القصصى الذى اعتمده بل حتى فى بعض الاوصاف الجزئية التى كان قد وصف بها شخصيات القصيدة العامة وشخصية اليتيم على وجه الخصوص ٠

استهل سعيد هذه القصيدة بقوله :

بينـا ترانى أجـوب الارض مبتهجـا تلقى فؤادى أليف الحـزن منزعجـا
حتى كأنى أرى فى عيشتى صحفـــا ما بين أسطرها حرف الشقا اندرجـا
لكننى بثبـاتى لســت أحسبــــه شيئـا فتحسبنى جـذلان مبتهجـــا
هـذا جنـانى وهـذى مقلتى ، وأنـا منهـا اليـه أجـر الويـل والفرجـا

ثم أخذ فى الحديث عن جماعة يقول : انه شاهدهم من بعيد وان ضجيجهم كان قد دفعه اليهم فوجدهم مغرقين فى مسرتهم :

هـــذا يغنى وهــذا مـن ترنمــه تلقاه يسمعـك الالحـان والهزجـــا
والزهــر يبعث فيهـم مـن تكـاثره طيبا فكنت أشـم الطيب والارجـــا
شجعت نفسى وكـانت لا تطـاوعنى أبغى بأنسهـم أن أطفىء الوهجـــا

حتى ظفرت وكاد الصدر من جدل   يرتاح من ألم فى الصدر ما خرجا
اذ دون قصد ويا لله من بصرى   حركت كامن ما فى القلب فاختلجا
قد لاح لى شبح هيهات اذكره   يوما وألقى لنفسى من صداه نجا
طفل صغير يكاد البؤس يقتله   يدمى القلوب ويدمى قبلها المهجا

انها نفس المفارقات التى كان الرصافى قد اعتمدها أساسا لتجلية المأساة: جو من البهجة المثيرة يشوهه منظر الطفل البائس اليتيم ٠

ولم يقتصر التشابه على اقامة المفارقات بل تجاوزها الى وصف اليتيم وهزاله وملابسه وسخرية الاطفال منه ومتابعة الشاعر له ومحاولة التخفيف عنه ومواساته والتوجه بعد ذلك الى الشعب كى يمد له يد المساعدة وها هو يقول فى ختام قصيدته مخاطبا الشعب :

هذا أخوكم وهذا بعض طينتكم   مما امتزجتم به ياناس قد مزجا
هذا يتيم فقير بائس نكد   من جوعه يشتهى لو بطنه بعجا
هذا الى الشعب فى اعماله عضد   بل خنجر للدواهى يقطع الودجا
هيا وجودوا بما فى وسعكم شغفا   بالبر حتى نرى فى الافق بدر دجى
حلوا لمسكينكم اكياسكم فلقد   آنت سعادتنا والثمر قد نضجا

لقد استطاع الشاعر حقا ان يجسم مأساة هذا اليتيم وان يساهم فى نشر الرسالة التى من اجلها أنشئت الجمعية الخيرية ٠ ومهما كان من أمر التشابه بين هذه القصيدة وبين قصيدة الرصافى فاننا لا يمكن ان نؤاخذه على تأثره بها خاصة وكثيرون من الشعراء فى المشرق والمغرب قد تبنوا هذا المنهج فى عرضهم للكثير من المشاكل ٠

ولعل سعيدا كان قد قال هذه القصيدة فى مرحلته الادبية الاولى خاصة وقصيدته الثانية عن (اليتيم) بعيدة عن هذا المنهج وفيها من الروح الرومانسية ما لا نلمسه فى هذه ٠ يقول فيها :

رحم الله ذلك المكلوما   حيث اضحى من الهنا محروما
باقيا مهملا كنبت تباهى   ثم امسى مجندلا محطوما
خيمت وحشة الليالى لديه   واعارته ربعها المذموما
أمطرته السماء حزنا كما امـ   ـطرت الارض وابلا مسموما
والدواهى بقوتها رجمته   فاغتدى بها حائرا مرجوما
يضع الجسم في التراب ومن جو   ع ترى الجسم ناقصا مهدوما

لا لعشـــق ولا لبعـد حبيـب   لا ولا رام بالطوى ان يصومـا
لا ولكـن هى الكـآبــة كم اذ   وت غصونـا ولازمتها لزوما !؟

على هذا المنوال يستمر الشاعر فى استعراض حياة اليتيم ليتـوجـه الى الشعب بعد ذلك بطلب انقاذه من المأساة التى يعيشها .

وما دام حديثنا عن الفقر فلنستعرض هذه اللوحة التى كان الشاعر قـد صور فيها حياة بائس معدم فى ليلة شتائية قاسية البرد ثلجية الثرى رعدية الافق عاصفة الرياح ، أخذ يجوس الشوارع والطريق والمنازل عله يجد المأوى الذى يحميه حتى نال منه اليأس فاقتحم بابا وارتمى داخله دون ان يعلم عما يحويه شيئا وأخذ يغط من التعب فى نوم عميق حتى اذا أطل الصباح تنبه الى انه كان قد نام بين الحيوانات وان ليلته كانت (ليلة اسطبل) وها هو الشاعر يتحدث عنه فى هذه الليلة مجليا المفارقات بين عالم الاسطبل الآمن الوادع وبين عالم الانسان المليء بالمظالم والاوبئة :

هو مسكـن الحيوان والانعام لا تـأوى لـه
الا ليلقى كـل خـل فى الظـلام خليلــه
هـو المكـان تطهـرا
وهى الوحوش تعاظمت عن كل مكر أو جفا

الخيل ترنـو للبعيـر بغيـر عيـن خائنـه
والثور يحترم النعـاج فـلا نعـاج كامنـه
الحب يبدو ظـاهرا
ما بينها فانظـر اليهـا والسعـادة راكنـه

هى ليلـة مـا بين انعـام قضاهـا ينتحب
ثم انثنى من بعدها يشكو ابن آدم او يسب
فاظهر اليـه تحسرا
لو كنت تسمع ما يقول لقلت يارب استجب

صرخـات قوميـة :

ان الظروف السياسية التى كانت البلاد التونسية تحياها فى عهد سعيد أبى بكر قد طبعت شعره بروح الثورة المتحمسة عـلى الكيـان الاستعمارى وبروح النقد والسخرية من الوجود الشعبى المتجمد .

وقد كان لالمامه ببعض القوانين وممارسته للذود عن حقوق الانسان خلال اشتغاله بمكتب الاستاذ راجح ابراهيم المحامي ثم لاشتغاله بالصحافة بعد ذلك وتعرفه على القوانين العامة وخاصة منها الدولية اثر بالغ في توجيهه الوجهة القومية في شعره ·

قال عنه الاستاذ احمد خالد :

« كان زينة النوادي بمدينة سوسة والعاصمة وفخر الادباء والصحافيين الايقاظ ، ما انفك يجهر بآرائه الاصلاحية في مجتمع عصره ويحرص على انهاض الهمم في شعبه المستبد المستكين وعلى مقاومة الجمود الفكري والمادي والانحلال الاخلاقي والظواهر الفاسدة للمدنية المشوهة · »

وقال أيضا :

« سعيد أبو بكر شاعر ثوري ... ثائر بقلبه وبعقله على الاوضاع المتعفنة في مجتمع عصره وعلى الظلم الخانق حينما كانت تونس تحت كابوس الاستعمار »

ومن اقواله ايضا :

« ... فهذا الاديب المناضل شاهد على عصره وأدبه قد ساعد ... في احياء الضمائر وانعاش النفوس وايجاد الوعي الجماعي والشعور بضرورة تغير الاوضاع الفاسدة »

من كل ما تقدم من هذه الاقوال يتضح للدارس ان الوعي الشعبي لم يكن قد نضج نضجا كاملا ، وان محنة الشاعر كانت مرتبطة بجمود الشعب وتمكن الاوبئة منه · ومن هنا كان تنديد الشاعر بالشعب او ببعض طبقاته صريحا في بعض آثاره ·

وها هو في قصيدته (خطوة اولى) يصور ركود الشعب وخموله وفقدان الاحساس فيه باعمق ما تدل عليه هذه الكلمات من معان فهو يلاقي العناء دون ان يدري وهو يعتبر الادواء التي تمكنت منه والعلل والخطوب التي تفشت بينه خطوة اولى ·

ويح هذا الشعب كم يلقى العنا وهو لا يبدي
يخدم الانسان فيه الوطنا دونما يجدي

قلت عاث الشر فى ارضكم طولا   فأجابوا ان ذا خطوة أولى
بثت الاوباء فى الشعب ، وهل   أنت تخفيها ؟
والتقت فيه خطوب وعلل   لست أحصيها
قلت سيف الموت فى الشعب سلولا   فأجابوا ان ذا خطوة أولى

هل حقا هى خطوة أولى ؟ والى أين ؟ الى المعالى أم الى القبر ؟ انها روح الشاعر الساخرة تترك السبيل الى المعنى ايحائيا أو غامضا ، وهى سخرية متعمدة فى غموضها ، لعل الشاعر أرادها طريقا الى الاثارة وايقاظ الهمم .

ومثل هذه السخرية بل مثل هذا التنديد بالشعب نلمسه فى العديد من قصائد الشاعر من مثل (الامر استوى) و (أيها الليل) و (أفق الرزايا) وغيرها ...

على أن للشاعر قصائد أخرى وقف فيها موقف المؤيد للشعب من أهمها تلك التى ناصره بها فى مطالبته بالدستور . ومن أبرز هذه قصيدته (فى سبيل الدستور) التى جاء فيها قوله :

ولا غرو ان صحنا وقلنا حقوقنا   يؤيدها الدستور فهو كفيل
طلبنا ضمانات الحياة ولم يكن   على المرء صعبا نيلها والحصول
هو الدوحة الكبرى فاما ثمارها   فشهد ، وأما ظلها فظليل
وبند ترى الاصلاح فى خفقانه   وتحظى اذا مستك منه ذيول

وللشاعر زهرتان كان قد نشرهما بمجلة النديم ردا على الحملة التى شنتها الصحافة الفرنسية قصد الحاق تونس بفرنسا قال فى الاولى وعنوانها (ليس بالسهل) متوجها بالخطاب الى أصحاب تلك الحملة :

أيها القائمون بالعمل المقوت   هلا فحصتموه مليا
ليس بالسهل هضم تونس حقا   عندما قام شعبها وتهيا
مزقوها اذا استطعتم ولكن   دون الحاقها لحوق الثريا

ويقول في ثانيتهما وعنوانها (لا كان) :

يراد بنا مسخ ما خطه ‏ يراع وجادت به محبره
فلا كان يوم نعيش به ‏ وتونس آلت لمستعمره

ويعبر الشاعر في زهرة أخرى عن تعلقه بالدستور وعن تفانيه في الاخلاص له في (أنشودة الدستورى) اذ يقول :

أنزل الاوصاب يا أفق الاذى ‏ ان ما انزلته لم يكفني
واجعلي يا ارض ما اقتاته ‏ منك سما انني لا انثني
أنا دستورى وما لاقيته ‏ من ضروب العسف لا يرجعني

ولم تقتصر قومية سعيد على الوجود الاقليمي بل تجاوزته الى الوجود العربى الاسلامى عامة . ويمكن الاحساس بقوميته هذه فى أكثر من قصيدة خاصة تلك التى يتوجه فيها بالخطاب الى ابناء الشرق داعيا اياهم الى النهضة والسعي الى مجد الحياة .

وقد قال الاستاذ مصطفى رجب متحدثا عن هذه النزعة القومية او الشرقية كما شاء هو ان يسميها :

«من قرأ شعر سعيد أو اطلع على طرف من شعره يجد النزعة شرقية بينة ، واذا قدمت مجموعة من هذا الاثر الشعرى غير مشفوعة بذكر صاحبها اعتقد أن صاحب هذه الاشعار مواطن فى القاهرة او فى سورية او لبنان او ما قارب ذلك من البلدان لان الروح الشرقية تملا جوانب هذه الاشعار . فسعيد يتكلم على لسان الشرق ويندب حظه ويذكره بأيامه الخضر ويصيح فى وجهه مناديا لايقاظه من نومه ورفعه من كبوته . وهو ينادى الشرقي بحرارة فى يأس طورا وفى استهزاء طورا ، وفى اثارة كوامن شعوره طورا آخر . »

كانت القوى الاستعمارية قد سيطرت على جل الشعوب العربية اذا لم نقل كلها . وفى مستهل هذا القرن وحين قامت الحرب العالمية الاولى واندلع اوارها وعدت هذه القوى شعوبنا العربية المستعبدة ، بالحرية ان هى وقفت الى جانبها وجندت من شبابها من ينضم الى صفوفها .

وكان ان انخدع العرب او الشرقيون بهذه الوعود واندفعوا الى مناصرة محتليهم .

وحين تم لهم الانتصار أخلفوا الوعد الذى قطعوه وذلك ما صوره سعيد فى قصيدته (الشرق والسماء) التى قالها على لسان الشرق يبتهل بها الى السماء ويقول :

خذ بيدى ، ويلاه قد ملات صدرى خطوب أتت من حيث أدرى ولا أدرى
دخلت غمار الحرب والحق واضح وغادرتها والحق قد صار فى القبر
مددت يدى نحو السلام فاصبحت تحط الدواهى كل يوم على ظهرى
أنا الشرق يكفى أن يكون بجانبى من الله نصر للرجوع مع النصر
أنا الغر لما أن أديرت رحى الوغى أنا الغر لا بل لست والله بالغر
فما هو ذنبى ياسماء ؟ وما الذى أتيت لاغدو أكلة الرخ والنسر ؟

وفى قصيدته (صوت الشرق) يجعل الشرق يتوجه الى الغرب بهذا اللوم والتهديد فيقول :

مكانك يا غرب فسوف تحاسب لدى عادل يدرى الخفايا ويحسب
ولا تجرحن يا غرب للشرق خاطرا ففى كل يوم للزمان تقلب
خدمناك فى تلك الوغى وتسربلت ثياب البرايا من دم وهو ساكب
وما عندنا فيها ـ كما هى ـ ناقة ولا جمل نسعى له وهو هارب
ولكننا جئناك لما وعدتنا وقلنا معاذ الله ان كنت تكذب

ولكن الغرب مع الاسف كان كاذبا مخادعا وذلك ما دفع بالشاعر الى ان يتوجه للشرق منبها ومحرضا على الثورة وداعيا الى الانتفاضة اذ يقول :

ألا أيها الشرقى هل من تاثر يحرك ذاك القلب ؟ يكفى من الذعر
وهل لك من هذى الرزايا منبه وهل لك عند المدلهمات من عذر
الى القبة الزرقاء سعيا الى السما الى مجلس ما بين انجمها الزهر
تعلق باسباب المعالى فانما اليك العلا تبدى الرضى لا الى الغير
وقطع يدا أمست تقطع بالمدى فؤادك يالله من ذلك الامر
هى الغفلة العظمى تفاقم خطبها فنابك فيها الحسر أعظم بذا الخسر
هى الدهشة الكبرى فاما زوالها واما زوال الشرق فى غصنه الزهرى

ثورة وتجديد :

« لو تصفحت الديوان لوجدت الشاعر لم يهرب عن مشاكل عصره ... هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ساهم فى تجديد الشعر التونسى الذى

كان يرسف فى قيود التقليد والبهرج الاجوف فكان مجددا شكلا ومضمونا . وانت لا تجده يتبع طرائق الشعر القديم من ناحية الشكل بل يلجأ الى الاوزان الجديدة التى احدثها ادباء المهجر والتى تستوعب مشاكل العصر الجديد . »

هذه هى الشهادة التى سجلها الاستاذ علي العريبي والتى حاول بها أن يحل الشاعر المكانة المجلاة بين شعراء عصره . وانها لشهادة ذات جوانب ، يتصل بعضها بمعالجة الشاعر لمشاكل عصره ، وبعضها بمساهمته فى تجديد الشعر التونسى من حيث الشكل وبعضها فى تجديده من حيث المضمون والذى يهمنا منها هو ما كان متصلا بالتجديد فى الشكل ، فقد نظرنا من قبل فى الاغراض التى تناولها وكلها تخرج عن الابواب التى عرفها الشعر التقليدي.

واذا كانت هذه الشهادة عامة فى حكمها فان شهادة الاستاذ راجح ابراهيم تبرز بصورة اوضح مذهب الشاعر التجديدى فى الشكل اذ يقول :

« وهو من القائلين بحل قيود الشعر وادخال أوزان جديدة عليه . وهو أول شاعر تونسى تجاسر ونظم من الاوزان الجديدة التى ابتكرها لنفسه واصبح له فضل ابتداعها عند محبذى طريقته غير مبال بالانتقاد الذى كان يوجهه اليه أناس كثيرون فى باديء الامر . ولكن ما لبث ان اقتدى به بعض الشعراء العصريين واصبحنا نرى من حين لآخر على صفحات جرائدنا قصيدة من الشعر الجديد »

وبمثل هاتين الشهادتين أدلى الاستاذ زين العابدين السنوسى والاستاذ مصطفى رجب وآخرون ونحن مع كل هؤلاء فى ان سعيدا كان قد رفع علم الريادة فى الاوزان بتونس ولكننا مع ذلك نود أن نشير الى أنه لم يسلم من الوقوع فى الاخطاء اللغوية والتعبيرية والضعف التركيبى والابتذال التعبيرى .

ان ضعف الادوات اللغوية والتعبيرية هو الذى اضطر الشاعر الى اعتماد كلمة يفرضها عليه الوزن ما كان لها أن تحل فى الموضع الذى أحلها فيه لولا الضرورة ، وهو الذى اضطره الى الوقوع فى الكثير من الزحافات الثقيلة وهو الذى أوقعه فى الكثير من التعابير المبتذلة التى كان من الواجب ان يتسامى عنها .

هذه حروف جر مثلا يحل بعضها مكان بعض فاذا المعنى يختل او ينعكس ، وهذه حروف يقتل النغم اصواتها فلا نكاد نتبين معانى كلماتها الا بالمعاينة الخطية ، وهذه كلمات لولا انتظام البحر لها لعددناها من الكلام العامى الذى

يدور على السنة الناس فى الاسواق ، وهذه ... وهـذه ممـا لا يتـلاءم مـع التعبير الفنى لشاعر مجدد ٠

وفى رأيى أن هذا الضعف يعود أساسا الى أسباب ثلاثة :

1) محدودية ثقافة الشاعر فهو لم يتجاوز المرحلة الابتدائية فى دراسته . ومعنى ذلك أن ملكته التعبيرية واللغوية عامة لم تستكمل تفتحها ٠

2) اشتغاله فى مكاتب المحامين ثم بالصحافة ، فقد عوده هذا الاشتغال على التعليل والتقرير وتقديم الحيثيات ، وعلى اقحام الكثير من الكلمات السوقية

3) وهو سبب نفسى لا يقل اهمية عن السببين الاولين ان لم يكن اهمهما، ويتمثل فى اطمئنانه الى سلامـة آثاره وجودتهـا منـذ أن كان يتلقى كلمات الاستحسان والاعجاب والتشجيع من بعض معلميه فى المدارس الابتدائية ، فهو كما قال الاستاذ راجح ابراهيم والاستاذ زين العابديـن السنوسى كان قد قال الشعر وهو فى الحادية عشرة من عمره ويذكر الاستاذ راجح انه كان يحرر بعض مواضيعه الانشائية شعرا ٠ فيقول :

« ان معلما كان مغرما بالتنقيح والتشطيب والزيادة والنقص فى مواضيـع الانشاء التى كان يعطيها للتلاميذ ليحرروها . وقد كان سعيد يجهد نفسـه فى كتابة الموضوع بصورة كان يتحققها تقنع المعلم ولا تحوجه لا لتنقيح ولا لتشطيب ولكن بدون جدوى واخيرا توصل سعيد الى ان اجبر معلمه على عدم مس كتابته بطريقة شيطانية لم تكلفه الا كتابة الموضوع قصيدة شعرية لـم يجد المعلم الى نفسه حقا فى مسها خوفا من اختلال الوزن او القافية ٠ »

وقبيل هذا النص كان الاستاذ راجح قد اشار الى انه وقف على نموذج من شعره وهو تلميذ فى « احدى كراساته المدرسية التى ما زال محافظا عليهـا كتذكار نفيس لايام دراسته وصباه » اما هذا النموذج فيمثل ابياتا من قصيدة طويلة حرر بها موضوعا انشائيا عنوانه (وصف حديقة) :

حديقـة زانهـا فى الكـون ان بهـا ... مـن النسيم نسيـم الطيب يرعاهـا
فنـرجس شـاخص يقـول نـاظره . ... سبحـان مـن رفـع السما وعلاهـا
والـدوح زاهيـة والطيـر خاطبـة ... عـلى منابـر ذاك الـدوح مرسـاهـا
وزادنى عجبـا مـن حسنهـا مطـر ... القى عـلى سطحهـا مـاء فـاروهـا
تجرى الميـاه ، وصب المـاء يكثرهـا ... وبيـن مجرى أراج الطيـب مجراهـا

أما الاستاذ السنوسى فقد اورد له نموذجا آخر ضمن خبر مفاده أن أحد متفقدى التعليم كان قد زار المدرسة التى بها الشاعر واراد ان يستكتب التلاميذ شيئا فأملى عليهم :

الشعر صعب وطويل سلمه اذا رقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه وليس يقدر عليه قلمه

فكتب الشاعر البيتين واضاف اليهما من صياغته قوله :

لكنه سهل قصير السلم اذا رقى فيه امرؤ تعلمه
يخطو به الى العلا بقدم عندئذ وكل عبد يكرمه

لعل هذه هى البداية فى اطمئنان الشاعر الى سلامة آثاره وربما تعمق هذا الاحساس بالاطمئنان حينما أخذت جريدة النديم تنشر (زهراته) فقد زرع فيه هذا الاستحسان وهذا النشر المبكر بذور الغرور فى نفسه فاذا به لا يسعى جاهدا الى استكمال شخصيته الفنية واذا به لا يتناول آثاره بالتحوير والتنقيح واذا به مع كل ذلك يرفض كل توجيه ولا يعترف باى خطأ يقع فيه ولعل ذلك ما يمكن ان نستشفه من قول الاستاذ السنوسى :

« ... انه يهتم بالمعنى وينقطع فى الاهتمام اليه حتى اذا ذاكرته فى الامر اكتفى بالابتسام الا انه فى المرة الآتية يأتيك بنفس العلة التى كشفت له عليها »

ان هذا القول يؤكد لنا على قوة اعتزاز الشاعر بآثاره الى حد الغرور ويزيد المسألة تأكيدا ما نقله الاستاذ احمد خالد عن جريدة (لسان الشعب) عن تلك المعركة الكلامية الحامية التى دارت بين الشاعر وبين الاستاذ السنوسى والتى كان الشاعر مصدر شرارتها الاولى اذ لاحظ بعض التحوير فى اربع ابيات من قصائده التى نشرها له الاستاذ السنوسى فى كتابه عن (الادب التونسى فى القرن الرابع عشر) .

وعلى كل ومهما كانت المآخذ التى يمكن تسجيلها على شعر سعيد فانه يبقى أحد الرواد العصاميين الذين انطلقوا بالشعر من مهاوى الافلاس الفكرى والعاطفى الى مستوى الابداع والخلق والتجارب الثورية الحية .

مصطفى الحبيب بحري

الغثيان ..

قصة : حياة بن الشيخ

ـ إذن لا أمل فى الدفن ؟

ـ لا شغور هذه الايام . المقبرة مزدحمة . تغص بمن فيها ..

ـ كفنى تعفن على .. بدأ ينخر جسدى ويصهر أعضائى . وتابوتى هد كتفى ..

ـ لا بد من التعود عليه . كفن جميل رائق على جسمك . غير أنه ينقصه ..

ـ أعرف . لا بد من شىء ينقصه . وجودى كله ينقصه دوما شىء ما ..

ـ الحياة التى لا ينقصها أى شىء يهجرها الطموح ويفر منها الامل

ـ الطموح الم . والأمل حسرة وندم . والحياة بحر أشجان وبؤس . السعيد من عرف كيف ينجو بنفسه من إعصاره وزوابعه .

ـ بل السعيد من خاض غمار أمواجه وعاد دون أن ينهك جسمه بعباب شقائه المتلاطم ..

ـ سخف وعبث . الكفن يكتم أنفاسى . يعتصر خطاى ، يفتت بقايا جسدى المتآكل ..

ـ المقبرة مزدحمة . لا مكان لأحد . حفنة تراب بمائة نفس . شبر أرض بألف روح ..

ـ انه ثمن باهظ ..

ـ هراء .. الروح أرخص من بصقة كلب . والانسان غدا أتفه من نطفة غبار فوق جناحى ذبابة ميتة .. ثم جثتك جد متعفنة غير صالحة للدفن ..

ـ إذن لا بد من العودة .. لا فرار من جحيم الحياة ..

ــ ما الانسان الا حطب خلق ليحرق فى جحيم الحياة ..

عدت عبر الشوارع المتربة أغوص فى بـرك الماء الآسن يمتص جسمى كفنى المتعفن ، أنازع وخزات ألم مكبوت ينغرز فى صدرى الموجع كابـر مسمـومة تحاول أن تجهضنى . وأنا أسير .. أسير .. أبحث عن منفـاى وسط البكـاء والعويل . والطريق أمامى مظلم حزين يزحف كمـارد أسـود رهيـب دامـى الاطـراف .

أمام أنقاض بيت متهالك ، جلست إمرأة حسناء ممزقة الثياب ، مجروحة الخدين ، دامعة العينين ، تندب بحرقة .

ــ ويلاه جفل حمارى . كره صحبتى . ومل دفء حجرتى . منذ أشهـر لم يشأ أن يضاجعنى . وهبته عمرى . أحببته دون الخلق جميعا أخذته منى بغلة عجوز عرجاء غدا يسامرها كل مساء . إنه الوباء يحل بى ، إنه الوباء .

ــ رفض الخبار أن يدفننى . المقبرة مزدحمة .. لا شغور أبـدا . كتفـاى تترنحان تحت ثقل تابوتى . لم يعد لى سقف . ظلت طريـق الحياة . نبذنى الاله . شىء ما دوما ينقصنى ..

ــ كا نصدى حوافره أعذب لحن يطن فى أذنى . وكان صـدره منبـع دفء أتدثر بحرارته من صقيع الوجود المدمر ..

ــ كفنى يضيق على .. يكتم أنفاسى . القبار وحش ولئيم .. والوجود جحيم حطبه أجزائى المهترئة ..

رفعت عينيها . نظرت الى برعب : كتمت شهقة . سقطت أرضا تتمرغ فى التراب الممزوج بالبول والوحل . عاد المارد يزحف أمامى يزرع طريقى أشواكا وظلالا . الموتى الاحياء وتابوتى وكفنى والشارع الحزين أسير بغربتى أصطاد الاوهام ، وأعلك الآلام . ومضات جنون ويأس تجتاحنى ، تتصارع مع أطياف ضياعى وحمقى .

ــ العذاب هو الطريق الى الفناء .. والموت هو الجدار الوحيد الواقى من آلام الوجود وإعصار الحياة .. أبحث عن حفنة تراب ، عن رقعـة أرض ، لكننى لا أجد إلا الغثيان يخنق نفسى ويغرق أشلائى فى بركة من القىء المتعفن ..

من يوم أن تدحرجت من رحم أمى وأنا أتسول باكية وفمى مفتوح يبحث عن شىء يلتهمه . والجوع دوما ينهشنى والظمأ يدمرنى . رفضت لبن أمى . كان

نهداها ينزفان دما صدئا أنكره فمي . بصقته وأنـا أصـرخ . أصبحت كلما إغتالني الجوع أصرخ .. وكلما هدني الظمأ أنبح . وأنبح عاليا . لا مكان تحت الشمس .. لا شعور تحت الارض . غريب أن تكون حفنة تراب بألف روح . وعجيب أن تتساوى النفس ببصقة كلب !!!

أمام مسجد الحي المتداعي جلس شيخ يكلله الوقار ، يسبح ناعقـا داعيـا الواحد القهار . نظر الي مرتعبا . بسمل حوقل . بصق أرضا . وعاد يسبـح بخشوع وإكبار .

ـ سيدي لفظتني الحياة . نبذني الاله . فقدت كياني . في مدينة الصراع بحي الضياع كان لي بيت تهدم ليلقي بي في فجاج العناء .. سعل . زفـر . نظر الي من خلال عينين متآكلتين . ثم عاد يسبح .

ـ طال الزمان . وفقد الرجاء . الموت أمنية عسيرة . والحياة يـأس مريـر ووبـاء .

ـ كفني يعذبني . التعفن يأكلني . المقابر مكتظة . المنازل زاخـرة بالهـوام الآدمية . الاطفال يزحفون كالديدان . الرجال يتكاثرون كالجـرذان . والنساء يتناسلن كالذباب ..

ـ الهوام البشرية تسمم الهواء . لامكان تحت الشمس . لا شعـور تحت الارض . الافق يزداد ضيقا .. يلفظ من فيه . يتقيأ ما فيه .. الوجود غـابة استغلال يرتع فيها الغزاة .. الايام جواد جامح الجشع يمتطيه لصوص الحياة .

ـ سيدي فقدت نفسي . أنكرني الموت . لفظتني الحياة ...

ـ كتب الضياع لأهل الضياع . الوداع أيها السراب الجميل . الوداع ..

الهوام البشرية ما تزال تتسلق ظهر المارد الاسود ، وأنا أترنح معها بهيكلي المتعفن يمزقني فقري . يخنقني كفني . وقد فقـدت نفسي أضعت رأسي بين منعرجات شجني وبؤسي . أجوب الطرق الحـربة أبحث عـن شخص خلـف سحابات الاسى . أفتش عن رأسي تحت أكداس الضني . أسـأل عن بيتنـا بحي الضياع ، في مدينة الصراع ، غيـر أنـي ضللت الطـريق . فأبقى بين العلب الصدئة أعوى ككلب مسعور لفحه الهجير ولا أقدر حتى أن أنبح عاليا.

أوعية صدئة مختلفة الالوان والاشكال . علب قذرة مغلقة نعتت بأجسـاد بشرية تتبعثر في كل مكان . تتدحرج على وجه الثرى كطيف دخـان كـريه

الرائحة ، نتن . يغوص فى بئر من القذارة ، يسبح نحو لا شيء . جهاد يومى من أجل لقمة العيش . وصراع مقيت لاجل حفنة تراب . حفنة تراب أغلى من ألف نفس . بينما الروح أرخص من بصقة كلب !!

ـ لماذا لا أدفن الجثث المتعفنة ، خلقت ليأويها التراب ؟

ـ أنت سراب . والسراب لا يدفن . ولا يفنى . هو فكرة حائرة بين الوهم والحقيقة . هائمة بين الواقع والخيال . ضائعة بين الممكن والمحال ...

وجه السماء يتشنج . يسود . ينبىء بهبوب عاصفة هوجاء . صدر الارض يتشقق . يتنفس بعناء وقرف . الغثيان يعتصر مهجنة الكون . المدينة تجتر حزنها . تبصقه قميئا داكنا مرا . الناس يتزاحمون . يعتصرون كيان المارد المتصلب . ينبع رذاذا ملتهبا . نهر من اليأس الزاحف أطفو على صفحة مياهه العكرة . أنزلق . يصفعنى رذاذ الامطار الملتهبة المتساقطة من أعين السماء الدامية .

التشرد يجذبنى . يطوقنى . أمتطيه كما أمتطى حمارا متوحشا وثقل تابوتى لا ينزاح عن كتفى المتآكلتين . كفنى يزداد ضيقا . تمزقه محاولاتى الفاشلة للانعتاق .

مكان رأسى المفقود يؤلمنى . تجمد الدم فى خلاياه المقطوعة .. بدأت الديدان تغزو . هضباته الموجوعة . كل قطرة دم سقطت على جلد الثرى ، إنبثقت اشواكا حادة بدأت . تستطيل . تنمو وتنمو لتنغرز فى أجسام الهوام البشرية المتسكعة فوق بطن المارد المتصلب . بغباء . تنغرز فى تلك العلب الصدئة . تنقش على صفحتها التى نبشها الجذام ، ونخرها الذباب ، آيات القحط والتعاسة الابدية .

قيل مذ دخلت الكون فقدت رأسى . نسيته فى ظلمات أرحام أمى . حاولت أن أعود القهقرى . أجوب الدهاليز المغلقة .. وأختطف رأسى . غير أن الطريق ملغم . مسدود . وقد نقش على العلبة التى تحملها رجلاى ، أن أظل بلا رأس أبد الدهر ، أسائل حفنة تراب . ولا مكان تحت الشمس ولا شغور تحت الارض ..

كفنى يأكلنى . الغثيان يخنقنى . وشىء دوما ينقصنى !! شىء دوما ينقصنى !!

حياة بن الشيخ

في الذكرى السادسة لوفاة طه حسين

بقلم : صالح البكاري

« اذكروا موتاكم بخير »

« ونحن نرى فى هذه الايام التى سهل فيها البحث والتقصى ، ورووقبت فيها الاذاعة ونشر الدعوة ، ووضعت فيها القوانين الصارمة لعقاب الذين يسبون الناس ويقذفونهم ويقولون فيهم غير الحق ، ويحملونهم ما لم يحتملوا ، ويضيفون اليهم ما لم يقولوا ، نحن نرى فى هذه الايام كيف يتهم الناس بما لم يقترفوا من الذنوب وكيف يحمل عليهم ما لم يحتملوا من الآثام » (1)

هذه الجملة من القول كتبها طه حسين فى أثناء رده لما الحق بالمتنبى من نعوت وما نسج حوله من أكاذيب ، وسواء أصاب طه حسين فى دفع ما شاء أن يدفع من تهم عن المتنبى أو أخفق ، فان هذه المقولة تبقى صحيحة جائزة ، ولا أدل على صحتها وجوازها من هذا الكتاب (2) الذى حبره أنور الجنـدى وعقبت دار الاعتصام الاخوانية فى قفاه بقولها :

---

(1) طه حسن : مع المتنبى ص 100 ، دار المعارف ـ ط 11 مصر

(2) انور الجندى : طه حسين ، حياته وفكره فى ميزان الاسلام ، ط الاهرام التجارية نشر دار الاعتصام ط 1 1976 ، ط 11 1977 وهى التى نعتمدها فى هذه الدراسة ونشير اليها : بميزان الاسلام . يقع هذا الكتاب فى 256 صفحة من القطع المتوسط ويشتمل على مدخل وثلاثة ابواب فى كل من البابين الاولين خمسة فصول وفى الباب الثالث ستة فصول ويلى الفصل السادس منها « الرد على ما كتبته صحف الهلال والجمهورية والجديد واكتوبر والاذاعة والعربى مع الاجابة على السؤال المطروح : هل غير الدكتور طه حسين آراءه فى الفترة الاخيرة من حياته » وخاتمة .

« لاول مرة بعد وقت طويل يتمكن أحد الباحثين المسلمين وهو أنور الجندى من مواجهة عميد التغريب فى الادب العربى المعاصر والفكر الإسلامى الحديث الدكتور طه حسين الذى شغل الناس أكثر من خمسين عاما بأحجاره وقذائفه التى ألقاها على كل زاوية من زوايا بناء الاسلام من خلال سيرة الرسول والدين والحضارة والتاريخ والادب . ألقاها فى كلية الآداب والصحافة ومجمع اللغة واللجنة الثقافية للجامعة العربية ووزارة المعارف ، وقد سار طه حسين قدما فى طريقه تحوطه هالة من الخداع والتضليل والحماية تحت أسماء التجديد والتقدم والعصرية والبحث العلمى .

وظهرت الاجيال الجديدة من الشباب فى هذا الجو المطعم بالخرافة الاسطورية فلم تستطع أن تتبين وجه الحق ، رأت ما أطلق عليه عميد الادب محاطا بهالة من التبريز والدوى ، فلم تعرف حقيقة الدور الذى قام به فى مجال التغريب والغزو الثقافى فكان لابد أن يتطلق للحق لسانا (كذا) »

وقد عمدنا الى نقل جملة تعليق الناشر لانه يوجز المدخل الذى كتبه المؤلف فى صدر الكتاب .

والكتاب كله يقوم على فكرة مزدوجة ، جانبها الاول ، وهو الصيغة ، تدعى أنه بحث علمى لمفكر مسلم ، وثانيها وهو المضمون هو بيان أن طه حسين كان فى نفس الوقت ملحدا ومسيحيا ويريد امامة المسلمين ، وكان صهيونيا وشيوعيا وعميلا لفرنسا والغرب عامة عدوا للاسلام والعروبة خائفا من الشعب سارقا يسطو كذابا ينقل البدع ، ولمن يريد قراءة هذا الكتاب مفاتيح وابواب ٧ فاما ان يكتفى بتعقيب دار الاعتصام ، أو أن يقرأ المدخل وهو مدخل ومخرج فى الوقت ذاته . وله ان يصابر ليقرأ الكتاب على علاته ، وهى مشقة بدون اجر ، وله أن يقرأ رد رجاء النقاش (3) أو رد انور الجندى على رد رجاء النقاش (4) .

واصل هذا اليسر فى هذا البحث العلمى أنك واجد فى كل هذه الابواب نفس المواد على عين النهج .

---

(3) رجاء النقاش : طه حسين فى قفص الاتهام ، الهلال ماى 1977 ، يجمل هذا المقال التهم التى يوجهها لطه حسين ويرد عليها واحدة واحدة

(4) عقد انور الجندى فصلا خاصا فى ملاحق الطبعة بعنوان : رد خاص على اراء الاستاذ رجاء النقاش ـ ميزان الاسلام صص : 236 ـ 241

فما هو هذا المنهج المتبع :

يقول المؤلف : ولا نريد ان نتعجل الحكم على الرجل وآثاره . وانما نود ان تضيء الطريق الى فهمه بتقديم الوقائع والوثائق المتصلة بحياتـه وفكره على النحو العلمي الصحيح حتى يجيء الحكم عليه (كذا) منصفا عادلا غير مشوب بشيء من التحامل او التحيز (5)

ولاضاءة الطريق الى هذا المنهج العلمي الصحيح ، لابد من تقديم ملاحظات منهجية حول هذا العمل .

وتتعلق أولها بعنوان الكتاب فهو على واجهة الدفة الاولى للكتاب هكذا : طه حسين : وفكره في ميزان الاسلام » ، وهو في الصفحة الاولى والثالثة (دون ترقيم) هكذا : « طه حسين : حياته وفكره في ضوء الاسلام » .

وهو في المتن هكذا : « هذا مدخل الى دراسة طه حسين (حياته وادبه) » وهكذا : « مدخل الى حياة طه حسين وفكره » (6)

وليس أغرب من هذا التحول من عنوان الى آخر ، الا هذا التناقض الصريح في التسميات اذ تدل العناوين الاولى على أن هذا الكتاب قائم بذاته ، ولا يحتاج الى سواه ، في حين يدل التالي منها أن هذا الكتاب مدخل للبحث الكامل الجامع « طه حسين مفكرا وأديبا » (7)

وهي مغالطة أدبية وعلمية واقتصادية ، اذ كم من الكتب ما ترى عليه عنوانا بالاحرف التاجية عن تاريخ الادب المعاصر أو المسرح أو القصـه ، وتحتـه بأحرف لاتكاد العين تتبينها عبارة « حتى سنة 1920 او ما يليها » ؟

والملاحظة الثانية ان هذا الكتاب جمع لما سماه المؤلف « وقائع حياته (طه حسين) ومفاهيمه وآرائه بالادلة والاسانيد والوثائق » وهي أدلة واسـانيد ووثائق ــ ان صح كونها كذلك ــ (8) مرصوفة متـراصة ، لا يتخللـها الا التعليق القصير ، يفرغ منها المؤلف ليعود اليها ثم يكررها عليك حتى تمجها .

(5) ميزان الاسلام ــ المدخل ص 7

(6) نفس المرجع ص 219

(7) نفس المرجع ص 223

(8) الهلال : خاصة ص 168 ثم 170 ، 178 ، 181 وغيرها

وأما عما يتصل منها بوقائع حياه طه حسين ومفاهيمه ، فيكفيك ان تقرأ ما كتبه طه حسين عن نفسه يوما حيث يقول (9) :

« وما أكثر ما أعجب وما أضحك أيضا ، حين أقرأ ما يكتبه الناس عنى بعد ان يفرغوا من قراءة هذا الكتاب او ذاك من كتبى ، لانهم يحصلون لانفسهم . ويعرضون على الناس صورا يزعمون أنها تمثلنى ، ولست أدرى . ولـيـس المتصلون بى من قريب يرون ان بينها وبينى سببا » .

والملاحظة الثالثة ، وهى متصلة بالثانية ــ اذ هى متعلقـة بهـذه الادلـة والاسانيد والوثائق تتمثل فى انعدام الضبط العلمي فهو يشير الى واقعة واحدة فى سياقين مختلفين ويضع بين يديه قرينة على وجهين فيقول (10) :

« وقد القى الدكتور طه حسين عددا من المحاضرات عـن البحترى ، وقـد كتب الدكتور زكى مبارك (البلاغ 12 مارس 1933) عن هذه المحاضرات تحت عنوان : الدكتور طه حسين يغلط ثلاث مـرات فى محاضـرة واحـدة » . ويقول (11)

« وقد القى محاضرة عن البحترى فكتب زكى مبارك فى جريدة البلاغ يقول : الدكتور طه حسين يخطىء خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة » .

فهذه الوثيقة المنقولة عن جريدة البلاغ لا يوثق بها بل لا يوثق بناقلها ــ وهو باحث علمى ثم هو قبل ذلك مسلم ــ لاختلاف نصها ومتنها، ولو كانت رواية شفوية ــ وما أكثرها فى هذا الكتاب (11 مكرر) ــ لهان الامر ، اما وهى حبر على ورق فلا ، فلسنا ندرى ان كانت محاضرة او عددا من المحاضرات ــ وهو امر يهم كل من يهتم بطه حسين والبحترى وما له صلة بهما ، كما لا ندرى ان اخطأ طه حسين او غلط والفرق شاسع بين المعنييـن لا يغيب عـن ذهـن باحث علمى أداته اللغة ولا ندرى أيضا كـم كـان ذلـك مـن مـرة حتى نعد على طه حسين أخطاءه ونحصى اغلاطه كما تسقطها المؤلف ، ونقف من عبارة « فقط » موقف الحائر ، لماذا لم ترد فى الرواية الاولى وهى اكمل الروايتين بدليل ذكر تاريخ الوثيقة فيها وفى تراص هذه الوثائق وتراصفها ، تجـد بعضها يدفع بعضا دون ان يتخذ المؤلف منها موقفا ، فيمحصها فكأن همه هو

(9) مع المتنبى ، ص 379

(10) ميزان الاسلام ص 133

(11) // // ص 153

(11مكرر) : الهلال خاصة ص 168 ثم 170 ، 178 ، 181 وغيرها .

الحكم على طه حسين لاله ، وادانته دون اهتمام بشيء من العدل والانصاف ، فتارة يرى المؤلف ان اراء طه حسين في حديث الاربعاء مأخوذة عن جرجي زيدان والاغاني (I2) واخرى يرى انه اخذها من سانت بيف (I3) وان اراءه في هامش السيرة اعتمد فيها على الاساطير وكتاب اجنبي مرة (I4) ومرة اخرى اخذه من كتاب على هامش الكتب القديمة (I5) وثالثة اخرى ينقل ان اسم كتاب على هامش السيرة منقول من الفريد اورشلم الاستاذ بجامعة اكسفورد صاحب كتاب على هامش سيرة المسيح (I6)

وملاحظة اخرى تتعلق بغلط انور الجندي ، الباحث العلمي او بجهله حين يقول : ان رأى طه حسين في (مع المتنبي) اخذ نظريته من بلاشير (I7) ذلك ان من جملة تنويهات طه حسين في كتابه هذا قوله (I8) :

« ونحن نستطيع ان نفهم عجز الاستاذ بلاشير عن ان يتذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي وان نعلله ، وان لم يكن في حاجة الى هذا التعليل ، فجنسية الاستاذ بلاشير واختلاف مزاجه وطبعه ، واخشى ان اذكر دينه أيضا ، كل هذا يجعل تأثره بهذا النحو من الشعر قليلا ضئيلا وربما جعله تأثرا عكسيا ، وربما دفع الاستاذ الى الغض من هذا الشعر والازدراء به ، اما نحن فان هذا الشعر (وصف المتنبي لحروب سيف الدولة عند الثغور) يثير في نفوسنا عواطف اخرى ، ويتتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الاستاذ بلاشير وامثاله من العلماء الاوربيين » ، وليس غريبا ان يكون انور الجندي على جهل تام بكثير من الكتب التي يورد اسماءها محتجا بها لصحة ارائه (I9)

(I2) ميزان الاسلام ص I6

(I3) // // ص 34

(I4) // // ص I7

(I5) // // ص 34

(I6) // // ص 208

(I7) // // ص 34

(I8) الهلال ص I68

(I9) مع المتنبي صص I74 — I75

هذه ملاحظات ، تتعلق بالمنهج الذى اتبعه انور الجندى فى محاكمة طه حسين (20) حيث يتبع منهجا يقبل الرفض والقبول غير ان فى الكتاب المذكور كلاما على غير منهج ومنه :

ـ ان عمل طه حسين على اعادة طبع رسائل اخوان الصفا وتقديمها بمقدمة ضخمة فى محاولة احياء هذا الفكر الباطنى المجوسى الذى كان يحمل المؤامرة على الاسلام والدولة الاسلامية قرينة مدينة له

ـ وان فى ترجمة مسرحيات شكسبير محاولة للتغريب وان فى ترجمة واذاعة (كذا) شعر بودلير العنيف فى اباحيته ، المسف فى اسلوبه (!) وترجمة واذاعة القصة الفرنسية المكشوفة تعديا على الاخلاق والاذواق مثلما هو الامر فى اهتمامه بالشعر العربى الاباحى القديم وتصيده وتصيد شعراء الاباحة والمجون ودراستهم والاهتمام بهم امثال : بشار وابى نواس والضحاك وغيرهم (21)

ويتبين لكل تحامل المؤلف على طه حسين بما لا يدع للشك بابا حين تراه يورد هذه الفقرة من كتاب الايام (22) : ويقبل صاحبنا على الامتحان واذا الاستاذ قد كتب على اوراق صغيرة اسئلة كثيرة وضعها امامه رجعل الطلاب كلما اقبل واحد منهم على الاستاذ يرقبونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ ، ويقبل صاحبنا ترافقه زوجته ، فاذا اخذت ورقة ودفعتها الى الاستاذ نظر فيها ثم ابتسم، ثم قال فى صوت عذب : لقد اسعدك الحظ بمرافقة هذه الآنسة : حدثنى اذن عن الامبراطورية العربية ايام بنى أمية » ويعلق انور الجندى تعنيفين لاوجه لهما ، اولهما قوله : « واعفاه من اسئلة التاريخ الرومانى واليونانى القاسية وثانيهما قوله : ترى ماذا كتبت السيدة فى الورقة التى دفعتها الى الاستاذ ، علم ذلك عند الله ، ولكن الذى فهمه الاستاذ هو ان هذا الرجل قد جاء محبا ، وسيعود مواليا للثقافة الفرنسية خادما لها ومعه ملاكه الحارس »

---

(20) من الفصول المعقودة فى هذا الكتاب الفصل الخامس من الباب الثالث وهو بعنوان « الاستجواب ميزان الاسلام » ، ص 177

(21) ميزان الاسلام ص 34 ص 139

(22) // // ص 31 ، وفى ص 221 يعلق : هذا ما سجله طه حسين وهذا ما دفعه الى النجاح : ورقة ربما قالت فيها السيدة للاستاذ : ان هذا هو الرجل المرجى فى مصر لخدمة الثقافة الفرنسية ، وربما قالت له شيئا آخر .

ولا تتمالك ازاء هذين التعليقين عن السؤال : هل يفهم انور الجندى ما نقل وما عليه علق : فكتاب الايام يقول صراحة ان هذا الاستاذ هو استـاذ التاريخ القديم ، وهو عند الاوربيين كل ما كان قبل النهضة ولا شك فـى انه لو كان السؤال عن التاريخ اليونانى او الرومانى واحسـن طـه حسيـن الجواب عليه ، لاقام انور الجندى من ذلك حجة عليه وأدانه بالولاء والتغرب

والفقرة واضحة تقول فى جلاء واضح ان الذى كتب الاسئلة انما هو الاستاذ لا السيدة وأن السيدة التى تقود صاحبنا لم تزد على ان اخذت ورقة من تلك الاوراق ولو كتبت شيئا وكيف تكتب ـ لما فات الاستاذ ذلك .

وانما يغيظ انور الجندى ان يمازح الاستاذ تلميذه تطييبا لخاطره كما يفعل المدرسون العارفون بأساليب التربية والبيداغوجية حين يلاطفون الممتحنين من التلاميذ والطلبة على خلاف اولئك الذين ينتصبون كالجلادين حتى اذا اخطأ التلميذ قال له الاستاذ : وقعت . وتذهب به الظنون كل مذهب وهى اثم ويشرك الله معه فى باطله ، ويرجم بالغيب ليكشف ما فهمه الاستاذ وان هو الا اسقاط لما خالج صدر المؤلف لا صدر الممتحن ؟

لماذا هذا الكتاب ؟ :

أشار ناقدو هذا الكتاب الى كونه بعثا لمعركة قديمة كان طه حسين أحـد أطرافها بعد ان نشر كتابه « فى الشعر الجاهلى » وليس ذلك ببعيد ، ذلك ان هذه المعركة قد اتخذت ابعادا خطيرة وخرجت من الوقائع والقرائن الى دنيا الفكر ، فصارت معركة فكرية حاده بين تيارين هامين من التيارات الفكريـة التى سادت مصر منذ العشرينات ومازالت تطفو من حين لآخر على السطـح لتغمر احيانا المسرح السياسى هنالك فى مصر ونعنى بهذين التيارين ، التيار الاسلامى المحافظ المغالى فى المحافظة ، وتمثله خاصة جماعة الاخوان المسلمين او طائفة منها (23) والتيار الثانى اسلامى كذلك ، ولكنه لا يتردد فى قبول مقتضيات العصر ، يحاول ان يطوع من الاسلام ماخلا الاصول ، كل ما رأى به حاجة الى اصلاح بل وتبديل

---

(23) رفعت السعيد : الشكريون وجماعة الاخوان ـ المستقبل ع 27 ـ باريس جويلية 1977

وقد توالت هذه المعركة طويلا ، واصبح المحافظون يتسفطون كل ما يعمله طه حسين او يقوله ليسارعوا بالتسخيط والتقريع ، فقد ادخل طه حسين يوما مسرحية لبرناردشو لتدرس فى الجامعة واعتبرها الجماعة طعنا فى الاسلام ، فحاصر « الطلبة المسلمون » (24) طه حسين فى مكتبه وآذوه ، وكان ان هرب وخلصه البعض .

وفى حفل تكريم لطه حسين بمناسبة تعيينه مراقبا للثقافة العامة بعد خروجه من كلية الاداب خطب طه حسين فى الحفل فقال (25) اريد ان انتهز هذه الفرصة ايها الاصدقاء لاقول ما قلته الف مرة وما سأقوله الف مرة ، فقد يظهر اننا هنا لا نسأم من القول والتكرار هو ان الاسلام اثبت مكانة فى قلوب المسلمين وفى قلبى انا كذلك من ان يتعرض لخطر لان فلانا قال او لان فلانا لم يحسن القول .

ايها الاصدقاء ارجو ان نكون احسن ظنا بالاسلام وأحسن ظنا بالله من ان نظن ان الاسلام معرض لاى خطر لان فردا يرى هذا الرأى او ذاك ، وأتمنى ان يقيض الله للاسلام من يدافع عنه كما ادافع انا عنه وان ينشره ويحببه للناس كما ابشر به انا ، وكما أحبب مبادئه للناس

وانبرى له الشيخ حسن البنا بنفسه مكذبا ساخرا فكتب فصلا فى مجلة التعارف بعنوان « اذا كان هذا صحيحا يا دكتور فقد اتفقنا » زمنه « اننى لاتمنى من كل قلبى مخلصا ان أرى ذلك اليوم الذى تدعو فيه انت للاسلام وتيسره بين الناس وتحبب تعاليمه اليهم » وبديهى ان الخلاف بين الشيخ والدكتور لا يتعلق بالاسلام فى حد ذاته بقدر ما يتعلق بتصوره عند كل منهما ـ فقد ذكر نيكوس كزنتزاكى الكاتب اليونانى فى احدى رواياته انه اجتمع فى بيت عمدة عثمانى فى قرية يونانية امام القرية واحد عوام المسلمين . وفلاح منهم ثرى فساقهم الحديث الى وجوب محاربة أهل تلك القرية النصارى او موادعتهم فحرض الامام على وجوب الفتح والقتال وسانده ذلك العامى فى حين اعترض المثرى ، وكل يستشهد بآيات من القرآن الكريم ، فقال العمدة : انكم لا تقرؤون ما فى القرآن ، وانما تقرؤون ما فى رؤوسكم .

وتتوالى اتهامات الشيخ حسن البنا لطه حسين ليصل الى الحادثة التى اشرنا اليها فيقول : « وما كان عليك ولا على الجامعة ولا على حرية الفكر من

---

(24) ميزان الاسلام ، ص 74

(25) // // ص 75

بأس أن تستجيب لابناء مؤمنين من تلامذتك رأوا فى هذا الكتاب طعنا فى مقدساتهم ، فلجأوا اليك بالطريق القانونى فى هدوء وآداب ، او ما كان اولى بالداعية الى الاسلام ان يشجع هذه الغيرة وييسرها ويعطف كل العطف على القائمين بها »

واذا تجاوزت عن تضارب الشيخين حين يقول لك الاخير ان طه حسين حوصر فى مكتبه واوذى ، فهرب الى ان خلصه البعض يقول الاول ان هؤلاء الطلبة قد لجأوا اليه بالطريق القانونى فى هدوء وادب ، اذا تجاوزت عن كل ذلك ، وعدت الى اصل المسألة وجدت انها تتعلق بمسرحية « جان دارك » لبرناردشو ، ينقد فيها احد الابطال النبى محمدا ، فيرد عليه بطل آخر مدافعا عن الاسلام وعن محمد ، وطرحت القضية فى مجلس النواب ، وكان العقاد عضوا به فدافع عن المسرحية لانها « تحمل فى حقيقتها دفاعا عن الاسلام بحجج قوية ازاء حجج ضعيفة فى الهجوم عليه » (26)

الخصومة

واذا كان طه حسين لم يسلم الا قليلا من التشديد التى تفرضه عليه نزعات وتيارات مخالفة له فى الراى ، فقد كان يرد على ما يتهم به مرة ، ويتغاضى اخرى ومع ذلك كانت حياته فترات متلاحقة او حلقات متواصلة من الخصومة والنزاع يدافع عن آرائه ويدافع عنها بالصمت ولسان حاله يقول (27) « انى من قوم قد بلوا السفهاء فأحسنوا بلاءهم ، وصبروا لهم واحتملوا منهم شرا كثيرا لا ضجرين ولا متحرجين ولا مستخفين فى ثيابهم » او ان يدافع عنها بالقول والخطاب مثلما كان شأنه فيما كتب فى جريدة السياسة ، وما جمعه فيما بعد فى حديث الاربعاء ، على ان الخصومة التى فرقت بينه وبين كثيرين من اصحاب مذهبه وبينه وبين كثيرين من غير أصحاب مذهبه ، لم تكن من الحدة بما كان بينه وبين المحافظين المتزمتين الذين كانوا يرمونه بالمروق عن الدين والدعوة للتغريب ، حتى اذا صدر الامر بحل جماعة الاخوان المسلمين سنة 1948 بتهمة ارتكاب جرائم عديدة وما تلاه من قتل محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء الذى كان يسمى حاكما عسكريا بسبب الحرب فى فلسطين ، وعثور الشرطة على مخازن للاسلحة تابعة للاخوان كتب طه حسين يقول : (28) : ما هذه

---

(26) الهلال ص 168

(27) طه حسين ــ حديث الاربعاء ج 3 ، ص 127 ط 8 ، دار المعارف ــ مصر

(28) رفعت السعيد : حسن البنا من المصحف الى الديناميت ــ ص 114 من ع 7 ــ افاق عربية ــ بغداد 1978

الاسلحة وما هذه الذخيرة التى تدخر فى بيوت الاحياء وفى قبور أموتى ، ما هذا المكر الذى يكمن ، وما هذه الخطط التى تدبر ، ولم رخصت حياة المصريين على المصريين ؟ يقال انها انما رخصت بأمر الاسلام الذى لم يحرم شيئا كما حرم القتل ، ولم ينه عن شىء كما نهى عن التعاون على الاثم والعدوان » ، وبذلك تتخذ الخصومة كل أبعادها وتخرج من اطارها الادبى لتتوسع فتشمل الدين والسياسة أصلا ، وبذلك تفهم لماذا يتحامل جانب كبير منهم على طه حسين ساخطين مشنعين ، لاختلافهم واياه فى تصور الاسلام ، ففى حين يعتبرون انفسهم « جماعة المسلمين » و « أهل الحل والعقد فى السلام » و « جند الرحمان وحماة دينه » ورهبان الليل وفرسان النهار « الذين يجيدون » « فن الموت » او « صناعة الموت » ويرون « من خرج على الجماعة ضربوه بحد السيف » (29) يرى طه حسين أن لا رهبانية فى الاسلام وان الاسلام لم يحرم شيئا كما حرم القتل ، وبذلك تتنزل القضية فى اطار عام ، يتجاوز انور الجندى وطه حسين ، بل تتجاوز شخص الشيخ البنا وشخص طه حسين ، هذا الاطار هو التفكير المصرى الحديث واختلاف مشاربه وافتراق مذاهبه وتباين اهدافه التى اثرت الفكر المصرى الحديث وان حجمته أحيانا كثيرة المآرب السياسة ولوحت به بعيدا عن مقصده المتمثل فى البحث عن انجع السبل للنهوض بمصر التى يعتز المصريون كثيرا بأن يسموها « أم الدنيا » و « قلب العروبة النابض » ؟

مفارقات فكرية سياسية

ومن هذه المآرب السياسية ، التى اتخذت الفكر لها مطية ، انقسام الكتاب والمثقفين المصريين على انفسهم بعد مبادرة السادات بزيارة القدس ، فصاروا يمينا ويسارا ، واستشرى الامر بين مؤيد ومناهض ومطالب ومطلوب وتقسمتهم الاهواء واصابهم داء السياسة ، فتركوا الانتاج وعمدوا الى المقالات السياسية بين هجوم ودفاع ووسط فصار العمل الفكرى لعبة سياسة ، والسياسية ظرف والظرف زائل بطبيعته ، والخوف كله ان ينسدم الينبوع الفكرى والثقافى فى مصر ، على غرار انسدامه فى لبنان .

---

(29) هذه العبارات والمقولات كلها للشيخ حسن البنا الذى يسميه الجماعة : الرجل الربانى والرجل القرآنى

ومن مبررات هذا الخوف ، هى هذه المحاكمات التى يورط فيهـا الادبـاء والمثقفون بعضهم بعضا ، قمع الحملات التى تستهدف نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعبد الرحمان الشرقاوى من جانب ويوسف ادريس من جانب آخر (30) واغتيال يوسف السباعى ، عرضت مجلة المعرفة (31) كتابا جديدا لمحمود شاكر يدعى فيه اشياء يتهم بها طه حسين ، وبرز فى مصر كتاب لعباس خضر (32) بعنوان « خطى مشيناها » (33) « يتناول العلاقة بين بعض ادبائنا ومفكرينا الكبار بآخرين كانوا خلفهم يعينونهم على الانتاج بأى وجه من الوجوه » يقول كاتبه : كان محمد شوقى امين (34) قد اتصل بالاديب الكبير محمود تيمور وعمل معه وبدأت العلاقة بالاتفاق على ان يصحح اصول كتابته ، ثم تطورت الى أكثر من التصحيح ، ورايت ملامح من قلم الصديق المكافح تطل من خلال كتابات الكاتب الكبير ، ويمضى عباس خضر مفصلا يزيد فـى الايضـاح : « ثمة اعمال ادبية ولغوية اخرى غير القصص اعتقد ان شوقى أمين كتبها منذ البدء مثل الفاظ الحضارة التى كان يقدمها محمود تيمور الى مجمع اللغة العربية وان قلم شوقى كان يجرى فى كتابة جاد المولى فى شرح « البخلاء للجاحظ » لعلى الجارم واحمد العوامرى

هذه التجريحات التى ليس فيها من التعديل الا قليل ، وهذا التقاذف بالتهم وتبادل اللوم العنيف والاستنقاص والتهجين ، اتراها تخدم الثقافة بمصر ؟ ما كان اولى اصحابها أن يختلفوا فى غير فرقة والا يحاولوا هدم اسس شامخة فى البناء الثقافى المصرى خاصة والعربى عامة حتى لا يفشلوا وتذهب جهودهم سدى ؟ أم ماذا بمصر ؟

صالـح البكـارى
كلية الآداب (تونس)

---

(30) رجاء النقاش : حفلة تجريح ليوسف ادريس ـ الدوحة سبتمبر 1977
(31) احمد محمد عطية : حملة جديدة على طه حسين المعرفة ع 195 ماى 1978 ـ دمشق ـ
(32) رجاء النقاش : أدباء ومواقف ـ الدوحة ـ اكتوبر 1977
(33) عباس خضر : فى القضية الادبية الخطيرة ـ الدوحة جوان 1978 ومن غريب الصدف ان جاء فى ص 214 من ميزان الاسلام : ان عباس خضر قال : ان الدكتور طه حسين سرق منه وهما طالبان معـا فى الازهـر مجموعة متون ، واتهمه صراحة بأنه اخذها فأنكر ... وانشغل الشيخ طه بلبس حذائه ، فسقطت المجموعة من حيث كان يخبئها !
(34) اخو الناقد محمود امين العالم ، وهو أديب لغوى عضو بمجمع القاهرة .

سرجي هذا ... والركوب بلا قيود !

شعر : الصادق شرف
(ابو وجدان)

حين تنزح الفكرة من بداوة الدماغ الى مدائن الشفاه يكون القلم قد أدى واجبه المقدس ، وعاد كما يعود الجندى الى أهله بعد أن يؤدى الخدمة العسكرية فى ظروف التحدى الدولى ..

* * *

انى وهبت غدى الى وطنى ، هل المخنوق يعرف يا ترى كبح الجماح ؟
قالوا : الا فاكبح جماحك ، وربما قتل الغرام غدا يباح ..
قلت : الغرام هو الحرام ! وهل يحلله سوى من كان تعشق اذنه حمل السلاح.؟
قلمى على اذنى سلاحى ، حين أورق فى شوارعنا دمى وتشعبت طرق الكفاح ..
فاذا صببت دمى على قلمى فقد آن الاوان لسلخ جلد الانسلاخ ..
واذا وضعت يدى على قلمى ففى الجبناء ينطلق الصراخ !.
هل صار ممنوعا على أمثالنا ولغيرنا دوما يباح !؟
يا خائفا قلمى أنا زمن الفجيعة ، لا تخف قلما نخاعه والغيوم ، وحرفه ريش الجناح ..
فاذا أردت المد ، ريش جناحه يمتد حين يطير بحثا عن صباح ..
وتظل تجنيحاته كسحابة حبلى تدفق جرحها .. والارض تنبتنا على مطر الجراح !

* * *

ساحاتنا مجرورة بالدفق والنزاعات والعضلات ،
وأنا مع المحراث ابحث فى التراب عن النبات ..

فلاحنا اقدامه محروثة الرغبات ..
واكفه حدادنا محروقة البصمات ..
شغالة فينا الحرائق ، لم تزل مشبوبة ، وشبابها الميلاد للحركات..
وعلى تضاريس المدى انفصعت بنا سفن الثبات ..
والغصن حين يميل لا طوعا ، ولكن اثقلته قطوفنا ..
دعها لتفهق من جراحات المشاعر بالذنوب حروفنا ..
فالموت أهون من شعور الذنب فى زمن الحطب ..

* * *

قلمى هل اتحدت حروفه بالغيوم !؟ تفرسن القلم الصبى ، هو امتطى ظهر التعب ..
لن يستبد به الركوب على حصان من خشب ..
خشب حصانك يا أمير الصامتين ، وباسمك المنحوت من لغو البلاد تريد منى استتب ..
ولقد تغرب غاصبى ، وبقيت أنت المغتصب ..

* * *

للقاطنين رطوبة الظل الثقوب هى النوافذ ، يسرعون لحشوها خرقا ،
اذا ما الشمس ارسلت اللهب ..
هذا اللهيب أنا أقدسه ، وأعرف أننى قدست عشقا ،
لم يزل يخشاه حكام العرب ..
قلمى لقد انهى تربصه على أستاذه العربى ،
جاء اليوم يفتح قرية أبوابها ثقب ، وتتسع الثقب ..
عربية اقلامنا ، وقبائل عرب الصعيد البدو اذ زحفوا من اللحظات ..
صارت هى الاجمات كدسا من حطب ..
يا .. البدو ، كيف تقلد الحكام من حطب البلاد عصيهم ؟
ركبوا على أسد من النزوات ..
ورأيتنا نفرا قليلا نجروا أقلامهم من غابة الكلمات..

نفر قليل هاجم الغاب المقنن بالحديد ، ونحن من فى الغاب أنطقنا الحطب ..
حينـا ،
واخرسنا الحديد الصلب فى شفة الغضب ..

* * *

عربية أقلامنا لكنها فى شرع حكام التصاعد لم تزل ..
أعواد تطبيل ، مزامير الطرب ..
يا نافخ الخدين دق على الحدود باصبع ، واسمع أحاديث الشغب..
الجد ـ يا سمار هذا الليل ـ متحد بأقوال ،
كما اتحدت طفولة شعبنا بالجد يطمره اللعب ..
الليل ـ يا سمار ـ هذا الليل متحد بسود لثامنا ،
ووجوهنا ما زال هذا الليل يحسبها كواكب تلتهب ..
هذا اتحاد الغفل ، واتحد النقيض مع النقيض ، ولا عجب ..
انا نعيش زماننا رجبا اصم ، ومن يعش رجبا يمت عجبا ،
وقد عشنا ومامتنا ، اذن نحن العرب ..
ستفجر المتناقضات دماغنا ،
لم تنفجر فينا الرؤوس ، ولم تزل تتباعد المتناقضات بنا فهلا تقترب ؟!
فى ما مضى كنا نعيش العام شهرا واحدا رجبا ،
وأصبحنا نعيش العمر فى رجب ، ونهرب من أواخره ـ رجب ..
من ذا يشاهد خرقة العادات ثم يصيح كالطفل الصغير تعجبا .. وبلا سبب !؟
فى ها الصياح أرى العجائب كلها اجتمعت ، ولا تدعو الى عجب عجاب ..
انى أرى المدعاة تنزح ، تنتفى الاسباب يا قومى فما سبب السباب .!؟

* * *

راجع صياحك يا ابن أمى ،
حين تسمع ان صوتك فى غرابته كغربة صالح // فى الناقة انتحرت ثمود .!
هلا رأيت هنا وجودك كله يحويه صالح ؟ هل ترى كم من ثمود فى الوجود .؟

هو ذا الوجود يغير ألاشياء لكنا نريد بقاءها ابدا على تلك العهود ..
إنا تعاهدنا على ان نصنع الزمن الذى فينا ،
يقول : حذار صالح قد يعود غدا يعود ..
فعلام لا امسى ، وتمسى انت من رفقاء صالح فى ثمود ؟
لنقول : انا قد صنعنا كوننا بمشيئة ...
بئس المشيئة حينما صنعت سؤانا عند هيكلة الوجود .!

* * *

قلمى على أذنى سلاح جاهز ، لولا نخاعه مطلقا لم يختلف عن أى عود ..
انى سمعت نخاعه الشوكى يضحك رافضا تاج الورود ..
ومتى أبى ان يستحيل الى منابع للصمود ..
فانا الذى حولت ضحكة أحرفى إيماضة كى تستمر مسامع السلطان تزخر بالرعود ..
فأصابعى لا تعشق الورد المدجج بالحدود ...
لكنها تلتذ وخز الشوك من أجل الصعود .!
فاذا نزلت عن الحصان .. فاننى ابدلت سرجى ، كى أعود الى الركوب بلا قيود..

تونس : 5 / 1 / 1979

كلمات منثورة

بقلم : البشير المجدوب

قال لى بعض الاخوان وكنا نسير فى جنازة : « ما أكثر الفرص الضائعة فى الحياة ! إنى ما حضرت مأتما الا أحسست بالغصة والندم . هذا الميت كان يمكن أن يكون لى صديقا أو رفيقا . لقد مات جزء منى لم أشعر به الا ساعة فقده ! »

⁂

اصنع كلماتك نحتا وتفجيرا من مرمر الصمت !

⁂

كثيرا ما يكون الولد نسخة ناقصة محرفة عن الاصل حتى لكأنها صورة ممسوخة منه هزءا به وازراء .

⁂

شد ما أرثى لك ولنفسى يا صديقى اذ أحسسنا ، رغم بهجة الانس ونشوة التصافى ، كالارض الناشفة الغبراء أكلها القحط وقتلها الظمأ هياكل خاوية تتحرك وتحيا ولا روح ولا ايمان ولا وجهة ولا غاية !

⁂

منزلة الفنان المبدع من آثاره كنسبة الخالق الى خلقه ... قريب بعيد على قربه ، ظاهر خفى فى ظهوره ، فهو فى كل مكان من ابداعه وفى غير مكان .

⁂

المحبة ــ وكذا الصداقة ــ بلا احترام زيف وغرور ، ولهى أحوج اليه منها الى مجرد العطف والود ، فلا نماء ولا صفاء ولا دوام بدونه.

⁂

ليس أسخف ولا أغرب من « صلة الرحم » كما نعيشها اليوم في بلدنا !

نزور أقرباءنا مرة أو مرتين في السنة فاذا جاز أحدنا عتبة البيت أدرك توا أنه أبعد ما يكون عن صميم مشاغل القوم حتى لكأنه يطأ أرضا غريبة أو كأنه زائر غير منتظر أو ضيف وافى في غير وقت .

***

الفن ، أيا كانت روعته وطرافته ، كذب وبهتان .. غش وخداع للذات .. ازراء بالانسان وتعلة للخيانة ان لم يكن بذرة حياة .. ان لم يفض إلى واقع أفضل وحقيقة تعاش يحيا بها ويموت لها الناس .

***

نحن أطفال أبدا أطفال لا نشفى من طفولتنا ولا نعتق منها ... نفس الرقة والحساسية وان مقنعة مكبوتة ، مهجنة مضطهدة . لا نشبع أبدا ولا نرتوي ، مهما كبرنا ، من العطف والحنان . ولعل ذلك سر شقائنا في هذا العالم المسخ الذي لا ينى يشكو نطامه من المحبة والاحترام .

***

الرجل والمرأة كلاهما يبالغ في تصور الآخر وتقديره الى حد والتقديس .. احساسا عارما بالنقص والفقر ، وشوقا الى التمام والكمال .

***

جذور كياننا ضاربة في أعماق الغيب تستقي منه الحول والقوة وتستمد الايمان والصمود عن وعي وغير وعي منا ... فما أسخفنا اذ نباهي ونزهى بأمجادنا وفتوحاتنا نتعاظم وتتطاول كما لو خلقنا أنفسنا خلقا ونحتنا كياننا نحتا على غير مثال ولا سابق صورة !

وليس لنا في الحقيقة من المنعة والاقتدار والفطنة والتبصر الا على قدر التحامنا بالغيب واستجابتنا له وتلقينا منه تجاوبا واعيا بصيرا. نيرا .

**

الصلاة الحق حال فريدة ممتازة يحس المرء فيها أنه موصول بالوجود صلة الروح بالجسد كما لو كان وليد الكون أجمع .. ذرة من ذراته المتآخية المتلاحمة على الدوام .

لحظات سيان أنت فيها والابد ، لقد كنت ولا تزال مذ كان الكون، فلا بداية ولا نهاية ولا مكان ولا زمان .

**

ميزة الفن التي يتفرد بها دون ألوان الجهد البشري كافة أنه لا يرضى فيه بالشيء الوسط ، لا تنازل في ذلك ولا تسامح ، فلا فن الا مع الجودة . تمام الجودة والاتقان المشرف أو المجاور للكمال ، وماسوى ذلك خليط غفل .. كمية مهملة لا وزن ولا معنى .. أنماط متداخلة متشابهة تتردد بين الضعف والتفاهة والسفه والسماجة . وقد يبلغ السخف ببعضها حدا تضيق له النفس وتألم غما وغثيانا.. سخطا وكآبة ، واذا الفن خزي ونقمة .. ضرب من العبث والعدوان.

**

نحن المدرسين لا يزال يطالعنا من ماضينا بين الحين والحين وجوه مشرقة .. اصدقاء لنا كثيرون لا حصر لهم ولا عد .. ذرات من كياننا تفرعت وامتدت في كل مكان .. صور منا تحدث عنا وتشدنا الى الحياة شدا ، واذا تيار الوجود لا يني يدفق في أعماقنا لا ينقطع ، واذا نحن لا نشيب ولا نموت .

**

الانسان صوت الله الناطق ببداعة صنعه وحكمة خلقه ، ولا معنى له آخرا الا أن يسبح باسمه ، ويترنم أبد الدهر بعظمته وجلاله .

**

الشر سماد الخير ولقاحه .

البشير المجدوب

الشــعراء ..

شعر : محمد الشابي

هؤلاء الاحباب .. والاصدقاء ..
كلهم ، كلهم لنا أصدقاء
إنهم منا .. لا لشيء سوى أنهم
يا حبيبتي شعراء ..
وجدوا .. رحمة لنا ونعيما ،
كما يوجد الشذى .. والماء ..

●

إنهم فوق عدنا بالأصابع ...
فيهم الميتون والأحياء ،
فيهم الساكنون فى كل أرض
منهم الراحلون .. والغرباء ...
منهم الشابى ، منهم عمر الخيام
أيضا ، وفيهم الخنساء ..
وكثير سواهم ، غير أنى الآن
ضاعت من ذهنى الأسماء ...

●

عندما يأتى شاعر زائرا أى مكان ،
تغير الأشياء ..
وتصير الأشجار أعلى جذوعا ...
وتطول المسافة الخضراء ،
وتزيد الورود فى كل حقل
وردة ، ثم تكثر الآشذاء ..
فاقرئى يا حبيبتى ... تجدى
أن فلسطين وردة حمراء ..

●

لو قرأنا يوما كتابا .. عرفنا
روعة الفكر واحتوتنا السماء ...
انما الشعر أن نعلم روحا ..
عطشا ... لا يكون منه ارتواء ..

حلم امرأة متزوجة

قصة : عبد العزيز القرشيشى

آه !.. وألف آه ! ومليون آه ! على هذا الزمان الغادر .. الحاقد . الجافى ..
آه !.. وألف آه !.. على حياتى !.. كيف مرت .. هكذا ، فى رتابة مملة ..
سماء مظلمة ، لا نجم يظهر فيها ولا قمر !!
آه على بختى الراقد فى « ثلاجة » لا يريد أن يرى النور ، ويخرج للشمس ، والحرارة ، لعل الروح تدب فيه فيقفز « قفزة » واحدة ..
هل العالم أعمى ؟
هل العالم مجنون ؟
نعم أعمى ومجنون أيضا ، وإلا ...
ما علينا .. الدنيا حظوظ ..
حظوظ ؟

لا .. انها غلطتى .. نعم غلطتى .. كم رفضت من خاطب تقدم الى عندما كنت فى عمر وردة بدأت كمامها تتفتح .. نعم رفضت كل الخطاب .. رفضتهم كلهم .. وما زلت ارفض ، وارفض ، وارفض ... ما من احد منهم يستحق يدى ، اعلم ذلك .. ما من أحد منهم يستطيع الفوز بقلبى ويعطينى ما أرغب فيه من الحياة ..

ولكن .. ولكن لم يأت فارسى بعد ، لم يأت رجلى الموعود ، الذى رسمت له صورا بديعة مزهرة فى خيالى ، وعشت معها الليالى الطويلة . كم مرة بكيت فى هدأة الليل والناس من حولى نيام .. بكيت كأن لم أبك طول حياتى ، متوسلة الى « طيفه » ان يظهر .. ان يظهر هو ، بلحمه ودمه ويدق بابى ، وينهى عذابى ، ثم يأخذنى من يدى ويطير بى فى الاجواء أو يغوص بى فى قعر البحار والمحيطات ، فأنا معه ليس لى اختيار .. انه ...

آه .. آه .. أين أنت ؟ ان صورتك متمثلة الآن أمامي : بقدك الطويل ، وجسمك الضامر ، وشعرك الفاحم الذى يحيط بوجه منير كالقمر . وجه يعلوه حاجبان أسودان كثيفان ، وعينان فيهما سحر ، وجرأة تـذيب كل طبقـات الجليد التى تحيط بها المرأة نفسها ، أو تطفىء كل لهب وشرر ، ترسله أنثى متحفزة ، متنمرة .

وجه يتوسطه أنف دقيق ، تحته فم كالشهد .. آه .. أين أنت أيها الفارس الجميل ، الانيق أين أنت ؟ أين ؟..

تنهدت هذه المرة بصوت مسموع ، جـذب انتبـاه الرجـال الـذى يجلس بجانبها ، مع بقية زوار الطبيب (ع) ، وهم قلة فى هذا اليـوم الاخيـر من الاسبوع : بعض نساء ورجلان .

التفتت الى جنيسها . وأصابعها ما زالت تعبث بمفاتيح سيارتها ، فاحمـر وجهها قليلا ، ثم حولت نظراتها الى الباب لترى الزائر الجديد ، واذا ببصرها يتجمد فجأة ، وكأن يدا مغنطيسية جذبتها بقوة ، ودق قلبها دقات عنيفـة ، وكادت الدماء تنبجس من خديهـا ، وأحست كأن نـارا حـامية تمـر بكامل جسدها : انه هو .. هو .. هو بعينه .. هو ..

ألقى الشاب نظرة على من فى الحجرة ، وتوجه الى أحد المقاعد ، وهو يحمل طفلا ، بين ذراعيه ، ملفوفا فى ملاءة من الصوف الاحمر .. كان الصغير ، يطلق تنهدات وزفرات حرى من تأثير الحمى التى تشوى جسده الغض .

نظر الشاب اليه نظرة جزعه ، وعاد يتأمل الوجـوه ، واذا بـه يعثـر على نظراتها ، كانت نظرات حالمة ، وعلى فمها شبه ابتسـامة فـأراد أن يبتسـم مجاريا ، متكلفا ، ولكنه ارتبك ، وحول بصره ناحية النـافذة ، ومكث مـدة قصيرة ، ثم عاد يتلمس الخط الواصل بينه وبينها فوجده كما كان ، عندها ، قام واتجه الى مكتب الممرضة بينما رنت هى اليـه ، تشيعـه بآهـة طـويلة مسموعة ، اهتم لها كل من فى القاعة ، وربما رثى لحالها جارها ، مشفقا عليها من المرض اللعين وما درى ، ان مرضا آخر أشد وطأة يأكل نفسهـا وينخـر عودهـا .

ــ جرس الباب .. انظرى يا (ياسمين) ..

ــ حاضر يا عزيزى !

ــ مــن ؟

ــ انه البستاني يهديك باكورة ازدهار الربيع .. آه يا عزيزي .. ما أسعدنا بهذه الجنة ، البعيــدة عن أعين الفضوليين .. أنا وأنت فحسب .. أتسمــع أنا وأنت ..

ــ نعم يا حياتي .. دعيني أقبل هذا الوجه ، بل هذه الوردة التي صيغت من أنفاس الجنة .. لا حاجة لي بأزهار البستاني .. تكفيني هذه .. انني أحيــا بها .. أحيا بها ...

ــ آه .. آه .. أرجوك يا حبيبي .

ــ (ياسمين) ...

ــ روح (ياسمين) ؟

ــ ألا تجدين اليوم حرا .. أحس بيبس في حلقي ...

ــ سلامتك يا حبيبي .. سآتي اليك بـ ...

ــ لا .. لا أريد .. ان عطشي لا يطفئه الا شيء واحد ...

ــ ما هو ؟

ــ قطعة من الشهد المبرد .. هل ذقت مرة عسلا مبردا يا حياتي ؟

ــ لا .. ولكني أريد أن أذوقه الآن ..

ــ الآن ؟

ــ نعم الآن .

عاد الشاب الى مكانه ، وهي ما زالت سارحة مع احلامها ، ولما رأته ارتبكت وانقشع ضباب الحلم .. لتعود الى واقع اعذب من الحلم وأرق منه .

لم تزدها رؤيته الا اندفاعا ، وراء خيالها الجامح ، الذي عاد يجرها الى عوالم مجهولة ، وخواطر محمومة .

ابنك .. نعم انه ابنك .. انت تزوجت غيري .. لكنها حمقاء .. حمقــاء لم تعرف كيف تسعدك ، انت لم تخلق لها .. انت لم تخلق لغيري .. انظر .. ها هو ابنك مريضا بسبب تهاونها .. انها لا تريد ان تبقى في المنزل ترعــاه وتسهر على راحته ، همها الخروج ، والجري وراء كل جديد : أزياء جديدة ، قبعات جديدة أحذية جديدة بل وحتى سيارات جديدة.. والنتيجة.. ها هو ذا ابنك يغلي

فى مرجل الحمى .. انها لم تفهمك ، لم يحاول أن تقدم اليك كـأس السعادة كما أقدمه اليك أنا .. نعم .. أنا وحدى أجعلك تحيا فى جنة رضوان .. لم أخلق لا لك ولم تخلق الا لى .

أخرجها بكاء الطفل من عالمها قليلا ، ثم عادت تبنى صرح الحب « بمشـال » من تخطيطها : انظر انه يبكى النار تأكل جبينه .

لم يكف الصغير عن البكاء .. رغم وقوف الرجل بـه محـاولا اسكـاته . عـاد يهزه هزات لطيفة متمتما دون جدوى عندها نظر الى الحـاضرين كأنـه يعتذر ، وعندما أراد مغادرة الحجرة الى الردهة نهضت هى وتقدمت منه .

ـ عفوا ، هل تسمح ؟..

ومدت له ذراعيها .

ـ لا عليك يا سيدتى .. لا أريد ازعاجك .. بل ..

ـ ولكن هذا لا يزعجنى .. انتم الرجال لا تتقنون هذه الصنعـة .. دعنى آخذه .. عن اذنك ..

لم ير الرجل بدا من ان يسلمها الطفل فأخـذت تهدهـده وهى تقـول فى نفسها : انه ابنها . نعم ابنها .. ولكن من أجلك .. من أجلك أنت يا حبيبى..

سكت الصغير ، وعاد كل الى خواطره وتفكيره ، وران صمت قصير ، وهى لم تزل تحمل الولد الذى ظل يتقلب ذات اليمين وذات الشمـال واذا بامـرأة تقتحم المكان كالسهم ، ملهوفة الفؤاد ، جزعة العين تصيح بصوت خافت :

ـ ابنى .. ابنى .

ولما رأت الرجل اندفعت نحوه .

ـ كمال .. عزيزى .. أين حاتم .

ـ لا تخافى يا حياتى .. انه بخير .

مدت الأم يديها ، وأخذت ابنها فى حضنهـا ، وجلست على اقـرب مقعـد وجدته بينما ظلت هى واقفة كتمثال من الشمع على وشك الذوبـان من اثـر الحرارة التى غشيت المكان فجأة ، وحذا الرجل حذو زوجته ممسكا بكتفهـا ، رانيا الى ابنه بحنان .

وعادت هى تهمس لنفسها : العالم مجنون ، العالم أعمى .

وما فتئت تردد هذه الكلمات بغضب ويداها ترتطم بجسد زوجها الراقد بجانبها ، حتى نهض المسكين مولولا :

ــ ما ماذا .. د .. دهاك يا امرأة .. ماذا دهاك !!؟

فتحت عينيها ، وفركتهما بقوة ، ولما عادت الى وعيها ، رفعت جسدها الممتلىء بتثاقل الى أعلى ، واسندت رأسها الى الوسادة وهى تقول :

ــ يا له من حلم !!! ياله من حلم !!!

وضحكت .. بينما قال زوجها وهو يستعد للنوم ثانية ، محركا بطنه بصعوبة ، وممررا كفه على رأسه الأصلع .

ــ يا لها من لكمات .. لكأنك « محمد على كلاى » فى زمانه !!!

اغرقت فى الضحك وهمست بقوة :

ــ نعم .. ولم لا .. العالم مجنون .. والحمى أيضا !!!

لم يفهم الرجل طبعا ما تعنيه ، وراح يغط فى نوم ثقيل .

عبد العزيز الفرشيشى

بين العروض والايقاع

بقلم : محمد الهادي بسباس

« واذا سلمنا بان العروض علم فلا بد أن يكون خاضعا الى الضبط العلمي قانون العصر »

(أصداء الفكر ص 1o/1 أكتوبر 1977)

تلك جملة قرأتها في مجلة الفكر جاءت تخبر عن فكرة اخذت كل يوم تتبلور، بل عن اعتقاد كل يوم يزداد رسوخا ، بل عن اتجاه فكري اخذ يتخلص من كابوس القرون الماضية متمثل في تقديس كل ما ورثناه عنها الى درجة التسليم به بلا نقاش ولا جدال لينعتق نحو سماء البحث والمراجعة والمقارنة وضبط العلة وبنت العلة والسبب والمسبب والكنه والكون .

تلك جملة جاءت تخبر عن كل ذلك وان اندرجت ضمن خبر عن بحث في العروض نشره الدكتور ابراهيم انيس في مجلة « الشعر » يناير 77 من ص 17 الى ص 25 تحت عنوان « فاعلاتن » يذكر في نفس الوقت قراء الفكر وادباء العالم العربي بكتاب الاستاذ الاديب البشير بن سلامة : « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » . الذي تعرض فيه صاحبه الى قضية العروض ، ذلك الكائن الحي الذي اشتى قرونا طوالا في تفاعيل الخليل ودوائره بين اسبابه واوتاده وعلاوته زحافاته والذي اوجب ــ اذ اخذ شعراء الضاد ينفرون البحور وامواجها المتلاطمة بين فاعلن ومستفعلن ومفاعيلن ــ البحث في كيفية تطويره .. وترويضه ... » وجعله يتقمص من عصرنا الذات المميزة لنا . نحن ابناء السرعة المتحركة . ويذكرنا صاحب الخبر بما نادى به الاستاذ البشير بن سلامة من « ان العروض العربي يجب ان يقاس بصورة أدق علميا وان يترك ما خلقته عبقرية الخليل بن أحمد في ظروف لم تكن فيها الآلة متطورة ، فاستنبط

مفاييس تقريبية ادت خدمة كبيرة ولكنها لا يمكن ان تصمد اليوم إمام الدقة العلمية ،

نعم ، شرعت فى الصائفة المنصرمة فى قراءة « نظرية إيقاع الشعر العربى » للاستاذ محمد العياشى . ولكنى لم انه منه ما يقارب الخمسين أو المائة صفحة حتى تركته يسقط من يدى وتخاذلت عنه . لماذا ؟ أمن أجل الطبعة التى دق خطها وطالت صفحاتها وتداخلت الرسوم والاشارات بين اسطرها فأعيت العين عند تصفحها وأعيت الذهن عند تدبرها ؟ أمن أجل الفصل وحرارته والاتعاب التى أرهقت الذهن طيلة سنة مدرسية فاسترخت الاعصاب وغلب الكرى الاجفان واخلد الخيال الى لذائذ الاحلام وحلو الاخيلة ورائق التصورات واذ لم يكن الكتاب من فصيلة الف ليلة وليلة ، وانى راحلة ، وزقاق المدق ، فعسر على الانتباه ان يصمد ؟ أم لان شهر الصيام قد قرب ، فتاقت النفس أن تخلد الى التعبد والاعتكاف ، فلم تر فى تعقب اخطاء الخليل ما يخلصها من ادرانها التى قد تكون تردت فيها احقابا ، ولم تجد فى تغير النظرة التى تعودت ان تنظر بها الى موازين الشعر ما يقربها من الله باريها ولم تكشف بين « الدم والتاك » اللذين عوضا الاسباب خفيفها وثقيلها وبين الاهتضام والتعويض اللذين حلا محل العلة والزحاف السلوك الذى يؤهلها الى الجنة ويقيها عذاب النار ؟

كل ما اعلم انى تخليت عن مواصلة الاطلاع عن هذا الكتاب وأقلعت عنه اقلاعا وقضيت عطلتى أقرأ كتاب الله المرة تلو الاخرى وأتدبره وأتحسسه وأتحسس إبعاده لا اتركه الا لقضاء حاجة لا بد منها او لصلاة اصليها حتى كان هذا العدد من مجلة الفكر وكانت هذه الجمل القصيرة البليغة الواردة بين الاهلة والمقتبسة من « أصداء الفكر » . فاذا بى أجد فيها الحافز لى حتى انهض من غفوتى واعود ثانية الى كتاب « النظرية » بنظرة جديدة يحدونى العزم فى هذه المرة لاقرأه بتمعن وتثبت من أوله لآخره . فاذا هو كما شاء له مؤلفه فى جوهره استجابة لمثل هذه الحاجة الملحة التى اصبحت تفرض نفسها فى هذه العصور التى اخذ فيها ظل العمودى يتقلص وجرس الروى يخفت وحركة الايقاع تفتر وتتضاءل حتى لكأنك أمام « فى غير العمودى والحر » تطلع على احلام النيام او ما يطفو من وعى المخدرين من خيالات لا بداية لها ولا نهاية ارجلها أيديها ورأسها بطنها تتلاحق أشلاؤها بين نقاط التتابع والتعجب والاستفهام ودوامات الدخان الضبابية ، كل ذلك نفورا من التفاعيل الخليلية

المضنية ومتاهات دوائره المذهلة ومغامرات زحافاته التي يجب تحاشيها فرارا من القبح . والاستقباح ، ومن العنت الذى نفرضه على كل مريد تجنح به عاطفته الى اقتراض القريض . او ليس الشعر الى العاطفة والحساسية والاحلام والخيال السابح فى عوالم ما بين اليقظة والنوم أقرب ؟ لم لا تتدفق أخيلة الشاعر وافكاره بصاحبها خارج قيود الوزن والايقاع والرتابة التى يسميها زبانية العروض نظاما ؟ ان الفكر المتطور والاحاسيس المتطورة والعاطفة المتطورة تحتاج كلها الى لغة متطورة لا تندرج بسهولة فى اطار يفرض تواتر المقاطع الصوتية مقصورها وممدودها على نمط يجعل منها ايقاعا تطرب له النفس وترقص له الفرائص ...

قلت : انه كان لى فى هذه الجملة الحافز لى .. لان مثل هذا الكتاب فى حجمه الكبير اذ هو يحتوى على ثلاثين وثلاثمائة صفحة من عيار واحد وعشرين على سبعة وعشرين ، وفى غزارة مادته ، اذ هو الى جانب دحض نظريات الخليل بن احمد والمستشرقين أمثال ستانسلاس قويار والغربيين بصفة عامة يبسط فيه صاحبه نظرية مكتملة لتدارس الايقاعات الشعرية تقتضى باديء ذى بدء التخلى عن كل ما تعودته النفس فى هذه القضية من عادات ومفاهيم ونظريات وطرائق واساليب الى جانب ما اشتمل عليه من دقة فى بسط التعاريف وعمق فى التحاليل والتعاليل والمقارنات والمضاربات . لا يتسنى للمطالع العادى ان يقرأه بنفس الشغف من صفحته الاولى الى صفحته الاخيرة الذى يطالع به رواية بوليسية احكمت مواطن الاثارة فيها او قصة عاطفية نفرغ فيها حساسيتنا الكامنة ونفرج بين أضلعها عن كوابتنا ومكبلاتنا . اللهم الا اذا كان دافع الرغبة فى الاستنارة بآخر ما وصل اليه العلم قويا ، أو كما وقع لى اذا وجد الحديث صدى فى نفس يعقوب بصفة يصبح معها الوجد قويا ، عنيفا يحمل صاحبه على القراءة بتؤدة فيقف عند كل فقرة يسبر أغوارها ويتدبر أبعادها ويستوعب دقائقها ، يرتوى من فيضها الدفاق المتدفق ومنهلها الرقراق العذب السلاف ... ولن تدرك الماء القراح ما لم تدم قدميك صخور الاوعار .

ولم يكن الاستاذ محمد العياشى واضع هذا الكتاب ، الذى عرفناه قبل هذا رياضيا رشيقا وشاعرا ظريفا وهاويا للموسيقى ولوعا يجهل هذه الحقيقة التى يتسم بها هذا الطود العلمى الذى أناخ بكلكله وأردف أعجازه على تفاعيل الخليل ودوائره وعلله وزحافاته واسبابه واوتاده وفواصله وخزله وخبله وخبنه فمحقها جميعها وسحقها سحقا ونفثها غبارا منثورا فى أدمغة المتشبثين

بالاخلاق والاخراق والارتاق ، أولئك الذين لا يتذوقون من الاطعمة الا ما حمض ولا يتزينونمن الحلل الا ما بلي ، ولا يطربون الى الافكار الا ما اخنى الدهر عليه وتجاوزته الاحداث . أوليس هو بذاته القائل في حق كتابه (ص 5I) :

« وأنا أتوقع ما سيجده الطالب من العنت والمشقة قبل ان يخرج من هذا الكتاب ببعض ما يريد » .

اذن هو كتاب دسم ، دق خطه حتى انك لا تستطيع ان تقرأه بسرعة تتجاوز العشرين صفحة في الساعة ، تلمس فيه من السطر الاول الاديب الضليع الذي ملأ وطابه من مناهل ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب والجاحظ والكندي وابن رشيق وابن خلدون واساطين النثر الفني وأعلام الفكر والفن العربي حتى روى وحذق اساليب التعبير وادغال الحجة فكان ذلك الذي اخذ من كل شيء بطرف وتعمق فيما اخذه من اطراف علما وفلسفة وقوة لغة ، ودقة برهان ، ووضوحا في الجدل والمجادلة فهو وان كان في جزالة لفظه ومتانة تركيبه وطرافة حجته وسلامة تعبيره يذكرك بفطاحل الاقلام من عهد هارون الرشيد والمأمون . تعجبني فيه نظرته المستقبلية التي يخالف فيها القدامى اذ لم يكن في أي موقف من مواقف كتابه من القائلين :

« بأنه ليس في الامكان أحسن مما كان »

بل كان الداعية المتحمس للمتأخرين يحكم لهم بالتفوق على المتقدمين ، وإن كان للمتقدمين في نظره فضل فانه لا يتجاوز ان يكون فضل الاكتشاف والاختراع بالنسبة لازمنتهم .

فاذا كتابه الى جانب ما زخر به بحره من علم وحكمة ، صرخة في الاجيال الحاضرة والتادمة كي ينفضوا عن بصيرتهم وادمغتهم غبار الاحقاب البالية فيأخذ كل حسب مواهبه واختصاصاته في مراجعة كل ما ورثوه عن العصور القديمة ونفض الغبار عنه وتجليته واجلائه حتى يكونوا بحق :

« حملة للعلم ، خدمة للفن ، سدنة للادب » ، واذا كتابه في تنكره للخليل بن احمد واتباع الخليل وفي محاولته لتدارس الايقاع الشعرى العربي من زوايا غير التي نظر منها الخليل وورثته ، مثال حي لما يقدر ان يقوم به ضمير حي ، يجد في نفسه الشجاعة ليفترض غير ما اعتاد الناس افتراضه ، قبل ان يكون بسطا لطريقة ادماج الطرق والوسائل العلمية والتقنية المعاصرة في الابحاث التي اعتاد العروض ان يتناولها بالتحليل والتقنين :

« فتمنيت لو اراجع كل شيء ولكن هيهات وليس لى من المواهب ما يتهيأ لذلك ولا من العمر ما يتسع له . والحوض لا يستوعب اللجة . فكيف يستوعب البحر . فعزمت على تنفيذ الخطة وتطبيق المبدأ فى ما هو من اختصاصاتى وفى حدود امكاناتى ، فانكببت على ايقاع الشعر العربى ادرسه وانفض عنه غبار الاوهام وأزيح عنه حجب الظلام على ان اهيب بالمجموعة البشرية كى تؤمن بهذا المبدأ وتعمل على تطبيقه فى كل النطاقات وجميع المجالات بتجنيد كل القوى وتسخير كل الطاقات كى يراجعوا كل شيء من اصوله بالعمل الجماعى والبحث الاختصاصى وان تقاصرت الاعمار عن بلوغ الغايات ـ وما اخاله الا كذلك ـ فلتتصافح الاجيال ولتتوارث الرسالات أبا عن جد ومن يد ليد لينهض لذلك رجال مخلصون لا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا يأخذهم كبرياء ولا زهو ، اقصى أمانيهم أن يكونوا حملة للعلم ، خدمة للفن ، سدنة للادب » .

واذا الكتاب يخرج علينا مثالا يحتذى فى طول النفس والصبر على الصعاب وتجشم المشاق وتحمل العنت والارهاق فى سبيل انارة الحقيقة وادراك المعرفة وارواء الظما وبلوغ الهدف الشريف والمقصد النظيف ، واذا هو المثل الذى يقتدى به فى الشجاعة الادبية التى يجب ان يتصف بها كل مؤمن برسالته تترجم عنها افتراضاته الجذرية التى يتخذها قاعدة لعمله التجديدى ، ومواقفه الجريئة من كل ما هو متعارف موروث من القيم المثالية ، مواقف يؤيدها ما وقف عليه من القيم الاحصائية ، وصراحته فيما يعتقد انه الحق :

« واعلم انى قد انفقت من عمرى ما يناهز العقدين وانا ادرس ايقاع الشعر العربى ظللت خلالها أسأل وامحص وابحث واتفحص .. حتى اذا حزبنى الامر واعترانى الوهن واعيتنى السبيل الى الغاية لذت بالخليل استنصره وبعلم العروض اعتصم به فلا أمنى الا بالخذلان ولا أحظى الا بالحرمان » .

عشرون سنة من البحث والكد والارهاق يتخللها بين الحين والحين شعور بالضيق ، ووهن فى السعى وخذلان وحرمان وفشل ، لكن العزم اذا صدق والقلب اذا اخلص والهمة اذا تعلقت بالمقصد الشريف فان اليأس لا يجد الى مثل هذه النفوس الكريمة منفذا ، فلا يقع فى يدها . فاذا استاذنا يثابر ويواصل البحث هو الذى جعل من حياته كلها النغم المسترسل والايقاع الذى لا يسلك النشاز الى صفائه واستقامته سبيلا ، ايقاع فى الشعر العمودى المتين وايقاع فى حركاته الرياضية لما كان البطل العالمى فى حراسة المرمى ، (*) وايقاع فى تعاطيه الموسيقى التى حذقها ، حتى فتح الله عليه ووفقه الى

(*) كان العياشى من الابطال الرياضيين ، وقد ذاع صيته فى أوائل الستينات اذ كان حارس المرمى للفريق القومى التونسى لكرة القدم (الفكر)

« نظريته » فى الايقاع ، فملأ بها فراغا كم ناشد أهل الفكر والفن والادب أهل المواهب الصابرين المؤمنين لاملائه ، فبادر بالتوثق لنفسه من حق مجادلة الخليل بن احمد ، اذ ليس من السهل ان يقلب امرؤ ظهر المجن الى نظريات سادت العالم لمدة تجاوزت العشر قرون ، فبسط نظرياته فى العقل وعدالة الله فى توزيعه بالتساوى بين الامم ، وفى عفوية الفن ومطابقته للفطرة والعاطفة والحساسية وحدة الحدس ، وفى النظريات واسباب فسادها وتناقصها وغموضها وفى علاقة الفكر بالفن :

« وانما اردت ان ابدأ بما بدأت به ارادة التوثيق لنفسى من حق مجادلة الخليل بن احمد . »

وكيف لا يتوثق لنفسه ولا يحتاط لها ، ولا يحتاط للنظريات الجديدة التى يريد بسطها وجعلها منطلقا مستقبليا لكل دارس لايقاع الشعر العربى ، ولا يحتاط للمثال الذى يريد ان يكون فى حملته الدعائية الى ضرورة مراجعة كل ما ورثناه من تراث دون افكار مسبقة ولا تحيز اعمى ؟ كيف لا يتوثق لنفسه وهو مقبل على معركة ضارية أن فتح الله عليه فيها بالنصر كان الفتح لكل من سيسلك من بعده مسلكه ؟ كيف لا يتوثق لنفسه وهو سيشنها حربا لا هوادة فيها على نظريات الف الناس التقيد بها منذ القرن الثانى للهجرة ، قد تحجرت فى قوالب وضعها عالم فى النحو ، دارس للفلسفة . لا يمت الى ميادين

وهو مقبل على معركة ضارية أن فتح الله عليه فيها بالنصر كان الفتح لكل
من سيسلك من بعده مسلكه ؟ كيف لا يتوثق لنفسه وهو سيشنها حربا لا

واذا الكتاب الى جانب النظرية فى الايقاع التى هى موضوعه وهدفه ، كله ثورة ، ثورة على الخليل بن احمد الذى تفطن بعقله منذ عشرة قرون الى وجود قوانين يخضع لها فن الشعر الذى كان ماضيا فى طريقه ينمو ويتطور بالاعتماد على الفطرة والحدس الباطنى فاذا هو يتناوله بالبحث والشرح مسلطا عليه ما استفاده من طرق علم النحو والصرف واساليبه ، فيخضعه الى نظريات واحكام وبحور وموازين ، فكان علم العروض الذى اخرجه للناس متناولا فيه الايقاعات الشعرية وحركاتها ونظامها فصبها فى شكل صيغ صرفية ودوائر هندسية تمسخ الايقاع وتشوهه وتعنت الموازين وتحرفها فتطمس الاحاسيس وتذهل الحس والحدس لكثرة ما استصحبها من مصطلحات يضيع فى تعدادها رشد كل مريد :

« ان الخليل بعد ان قسم الكلام فى الشعر الى تفاعيل عمد الى تلك التفاعيل فقسمها بدورها وزعم انها مؤلفة من اسباب واوتاد وفواصل فاحدث بذلك بلبلة فى الافكار وشغبا ومحنة لا تطاق .. فروع العقول بمسائل الخزل والخبل والخبن والخبط وغير ذلك من الامور التى لو حاولت فهمها او حفظها لاختبلت لانها مما لا تقوم بحفظه حافظة ولا تضطلع بذكره ذاكرة » .

انها ثورة على علم العروض لما احتوى عليه من مسائل تقريبية كان يرضاها الذوق ويكتفى باشارتها اهل الفن لاعتمادهم بالدرجة الاولى على حسهم وحدسهم فيما ينظمونه من اشعار واصبح استاذنا وغيره من اهل الرأى يعتبرونها بالنظر الى ما وصل اليه علم الايقاع والاصوات والترقيم من الاغلاط التى مرت القرون وتعاقبت الاجيال دون ان ينهض الى تصويبها او يتجرأ على الكشف عنها احد ، وكذلك ثورة على ما انتاب العروض وانتاب متعاطيه من جمود فى التفكير وسلبية فى التحليل ، فاذا الجمل التى تكيل للعروض وخليله ومن لف لفه من الصفات ما يحرقهم فى نظر كل راغب فيهم تترى حتى ترغب عنهم كل ذى عزيمة صادقة :

« فعلم العروض قائم على اسس واهية متداعية ، وهو بمثابة مجموعة للاغلاط ومنوعة للعيوب لم يجتمع منها فى مؤلفات العلماء ما اجتمع فيها على وجه الدهر .. ان علم العروض شغل الناس واقعدهم عن طلب الصواب اذ سحر عيونهم وسد آذانهم وأذهلهم عن السبيل . واما مساويه فكثيرة نكتفى منها بالاهم وهى التفاعيل والدوائر والزحافات والعلل .. وكيف تكون التفعيلة ميزانا لغيرها وهى غير موزونة مع نفسها لا فى اوقاتها ولا فى حركتها ؟.. ولو

اصررنا على الاستمرار فى استعمال طريقة الخليل لكنا كمن يؤثر استعمال الحفنة والذراع للكيل على الرطل والمتر . ولو فعلنا لكنا كالمتشبثين بركوب الجمال والحمير فى عصر تجاوزت فيه سرعة وسائل النقل الحديث سرعة الصوت وعجبى لهذا العلم كيف قام طيلة مئات السنين على شفا جرف هار من غير ان يتداعى او ينهار ...

سامح الله الخليل فكم اعشى من بصر واذهل من عقل وأذهب من صواب بما ابتدعه من بدع الزحافات ذات الخبن والقبض والوقص والنقص والعقل والشكل وغير ذلك من الترهات ..

فما بالنا نلتزم التقيد بنظريات القرون الوسطى كان القرون لم تحدث بمرها شيئا من التطور فى العقليات والنفسيات والاتجاهات والمبادىء . »

وكذا يثور صاحب « النظرية » فيلقى الخليل بن احمد وستانسلاس قويار ومن لف لفهما من اهل الشرق والغرب ممن تدارس علم العروض او يدارسه دون ان يكون مهيئا لذلك . ويستفحل خلافه معهم ويتفاقم شكه فيهم وتعقب ثقته بهم ريبة ولم يكن ذلك منه لانه يمقت النظريات او يستخف باهل العلم او يكفر بالاعمال الفكرية التى يستنبطها العقل والمنطق او يترفع عن التقيد بالنظم والقوانين التى من شأنها ان تحد من الحرية الشخصية والفوضى الجماعية :

« انى لا أثور على النظريات من حيث هى نظريات مفيدة ولست انكر ان الاعمال الفكرية من القواعد والنظريات مفيدة للعلوم والفنون اذ فيها حرز لها من التلف والضياع والاهمال وحماية من الخطأ والخلط بما تحفظ من اصوله وتضبط من مبادئها التى لا مفر فيها من الضبط والتقنين . والعالم بما فيه من كائنات وافلاك يسير حسب قانون ونظام ، والفرار من التقنين وقوع فى الفوضى وليست الفوضى كالنظام .

واما اعتبارها شيئا رسميا وعملا نهائيا فخطأ فادح لا تقدر مضرته لان النظرية بمثابة القانون للفن لان القانون تحديد وتقييد . والفن لا يسمح ان تحده الحدود او تقيده القيود .»

اذن بات من الطبيعى ان توضع النظريات الجديدة لتقنين الفنون كلما تطورت العقليات حتى يمكن للفن ان يتجدد ويتطور ، ومن اجل هذا ينسى

شاعرنا وباحثنا التسامح الرياضي او يتناساه فينكر على الخليل جميله ويحمله مسؤولية جمود فكر لم يكن هو من الدعاة اليه ويحمله مسؤولية عدم الكشف عن اكتشافات وقعت في العالم الغربي في القرن الخامس والسادس للهجرة وحتى القرن الثاني عشر ، فلم يكن عقليا ولا تاريخيا مهيئا للكشف عنها . ومن اجل ذلك ينكر عليه حق تناول الايقاع الشعري بالبحث والتحليل والتقنين بالاعتماد على الوسائل التكنولوجية التي كان يضعها القرن الثاني للهجرة بين ايدي الالسنيين . ومن اجل ذلك يشنها حربا عوانا ، شعواء عليه هو الميت الذي ليس له سلطان على الاحياء يمنعهم بقوته وبطشه من مواصلة استجلاء ميدان من البحث كان السابق اليه هو الميت منذ ما يناهز الاثني عشر قرنا ، لا لشيء الا لان العرب اكتفوا طيلة هذه المدة بالعلم المنقوص الذي وضع لبنته الاولى بحدس عجيب ولم يقدر الله ان يطيل في عمره حتى يستوفي أركانه بما يتماشى وتقنيات القرن العشرين !. فلماذا ينقم على الخليل يا ترى ؟

يقول صاحب النظرية :

« اعرضت عن كل ما جاء به علم العروض وعن كل ما ورثناه عن الاقدمين مما يمت الى الايقاع بسبب من قريب او بعيد والغيت كل ذلك وزهدت فيه وجعلته وراء اذني . »

اذن ان الخلاف لعميق وعميق جدا بين صاحب « النظرية » والقدامى ومن اقتدى بالقدامى وانتمى الى مذاهب القدامى في كل ما يتعلق بالايقاع الشعري. لقد استفحل الخلاف مع العروض والعروضيين الى درجة القطيعة . فآل الامر بصاحب «النظرية» الى رفض كل امر اهتدوا اليه واقروه واقرته الاجيال المتعاقبة من بعدهم اذ رآه الجميع جديرا بان يحفظ لهم ، الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، تراثا يعتبره الجميع العمود الفقري للحضارة العربية واعني بذلك الموازين الشعرية . ترى ماذا أصاب التفاعيل من علة ، او ماذا اقترفته في حق الشعر والشعراء من جريرة حتى استحقت مثل هذه القساوة في الحكم ومثل هذا البوار ؟

تلك التفاعيل التي كانت الحصن الحصين الذي لاذت به الايقاعات الشعرية فحماها وحمى الشعر من التلاشي والنوبان والتحريف الى يوم الناس هذا ؟ أي جرم ارتكبه الخليل بن احمد واتباعه المتعاقبون على مر العصور حتى يضرب صفحا عن كل ما نسجوه من القواعد والافانين والقوانين ؟

يقول صاحب النظرية فى جملة ما ورد فى كتابه من معللات قطيعتـه مـا نصـه :

« وعلى حين كنت اتحسس أشكالا صوتية كان يتدبر أشكالا بصرية وعلى حين كنت اسمع باذنى كان يلاحظ بعينه ويقدر بفكره فاخطأ التوفيق وحـاد عن الطريق » .

اذن ان اصل الخلاف اختلاف فى المنهاجية . لئن كان الهدف واحدا واعنى بذلك ضبط الايقاع الشعرى العربى بموازين يرجع اليها كل مريد او ناقد ، فان الطريق التى توخاها الخليل لبلوغ الهدف غير الطريق التى سلكها خصمه الاستاذ محمد العياشى .

الهدف واحد ، اذ ادرك كل من الاثنين ان للشعر العربى رونقا يطرب لـه السامع فتهتز مشاعره ، وادرك كل ان هذا الرونق ماتـاه الاسـاسـى الـى جانب ثوبه اللغوى . فن الفنان الذى فطر عليه ، وادرك كل ان هذا الرونق الفنى منبثق عن نظام فى ترتيب الاصوات ممدودها ومقصورها ينبثق عنـه ايقاع . وادرك كل انه لا بد من ابتداع طريقة لضبط هذا الايقـاع وتدوينـه بكيفية تسهل على المريد بادىء ذى بدء الوقوف عليه فى شىء من اليسر ، ثم حذقه بثناياه وتضاريسه ومنعرجاته وتجاعيده وخفاياه وخباياه . فاذا الاثنان قد ادركا ضرورة وضع نظرية فى الايقاع الشعرى العربى .

ولكن كيف البلوغ الى هذا الهدف الواضح الجلى الذى شخـص بكلياتـه وجزئياته امام الضميرين اليقظين ، المتقدين حماسا وتحمسا ؟

ويرى الاستاذ محمد العياشى ان الخليل فى منهاجيته لم يكن يتدبر الاشكال الصوتية التى يتألف منها الايقاع الشعرى ، بل لم يكن يستمع الـى الشعـر ويتذوق ايقاعاته فوقع من اجل ذلك فى الخلط والخبط والخطا واوقع كل من أخذ عنه واقتدى به فيما وقع .

ان السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو :

الى اى مدى يكون الاستاذ محمد العياشى مصيبا فى حق الخليل والى اى مدى يكون مخطئا ؟

ان من يطالع كتاب محمد العياشى : « **نظرية ايقاع الشعر العربى** » :

أول ما باغت به هو اختلافه مع الخليل في الاصطلاحات المستعملة وان كان المسمى في اغلب الاحيان واحداً .

انطلق الاثنان من المقطع الصوتي وان كان الخليل نظرا لمعطيات عصره لم يكن في امكانه ان يسمى المقطع مقطعا فسماه حرفا. ولاحظ الاثنان ان هذا المقطع يكون ممدودا او مقصورا ، ويرى الخليل ان الحرف يمتد بالساكن الذى بعده الذى قد يكون سكونا ميتا ان كان حرف مد وسكونا حيا ان كان حرفا ساكنا . واما صاحب النظرية فانه يرى المقطع يمتد بسكون الاستغراق عوضا عن السكون الميت وبسكون التركيز عوضا عن السكون الحي . ويقيس الاستاذ محمد العياشي المقاطع الممدودة والمقصورة بفضل الاجهزة العصرية التي وضعها العلم تحت تصرفه من مترونوم وسوناقراف فاذا هو يكتشف ان الممدود له ضعف دوام المقصور في الزمن وانه قد يصيب القصير مد او تقصير في مدته على حساب المقاطع التي تليه . فيكشف بذلك عن التسهيل بنوعيه تسهيل المعاوضة وتسهيل الاهتضام . اما الخليل فليس له ليقيس مدد الممدود والمقصور الا الاوزان الصرفية فكانت فعولن ومفاعلتن ومستفعلن ومفاعيلن وغيرها واهتدى هو الاخر بفضل هذه الطريقة الى ما يصيب الممدود من تقصير في مدته الزمنية فكان الزحاف ، او ليس التسهيل هو الزحاف بعينه وان تعددت الاسماء ؟

وحيث ان صاحب النظرية اخذ عن الموسيقى آلات قيسها من مترونوم فانه اهتدى الى الامكانيات التي توفرها له الموسيقى برموزها لو استعملها في تحليل الايقاع الشعري واخذ هكذا عن الموسيقى دمها وتكها وساكتها واصطلح على ان يكون بصفة عامة ، الا في حالة تسهيل الاهتضام ، كل ممدود ثقيل متبوع بوحدة قيمة ساكنة اسمه « د م » متبوعة بسكوت فاذا هي طريقة بصرية اوضح في الدلالة من التفاعيل ، واصطلح ان يكون كل مقصور خفيفا اسمه « تاك » وكل من عرف الدربكة يعرف منها موقع الدم والتك . وهكذا يؤلف الاستاذ محمد العياشي بين المقاطع الشعرية ونقرات آلات النقر الموسيقية . أما الخليل فانه لاحظ نفس الظاهرة وحيث انصرف من البداية الى القيس بالموازين الصرفية فانه لم يهتد الى نقرات آلات النقر وان اشتهر العرب بالدف والطبل وراح يسمى المقاطع الصوتية بما كان أهل النظم يسمونها مستعملين في ذلك مسميات تطلق عادة على ما يثبت به بيت الشعر في رمال الصحراء من حبال ومواثيق وغيرها فكانت الاسباب والاوتاد . ولا ادل على صحة ما ادعيه من تفريقه بين الاسباب

الثقيلة التى تجمع بين مقطعين خفيفين . او لم يقل لنا الاستاذ محمد العياشى ان الوحدة الايقاعية الثقيلة تساوى وحدتين ايقاعيتين خفيفتين من حيث الزمن ؟ او لم يرجع بنا الى مثل هذه النظرية ليشرح لنا التسهيل بالمعاوضة ؟ ويقارن الخليل تفاعيله بعضها ببعض ويحاول ان يستخرج قاعدة رياضية منها تشرح كيفية توليد الايقاعات وتسهل على المريد حفظ البحور فكانت دوائر الخليل. ويقارن الاستاذ محمد العياشي الايقاعات بعضها ببعض ويعمل فيها بصره وفكره وسمعه وحساسيته وحذقه الآلات الموسيقية ودرايته بالجداول الحسابية التى حذقها حين درس الرياضيات من مثلث باسكال وغيرها فكانت أهرامها الايقاعيـة .

ومن الطبيعي ان يكون الاتفاق فى شأن هذه الظواهر حاصلا وان اختلفت اللغة لان المدروس واحد ، وخصائصه القارة التى تبرز مهما كانت طريقة التحليل واحدة . ومن الطبيعي ان يكون ما وصل اليه صاحب « النظرية » أدق واضبط والا فما فضل المتأخرين على القدامى ان لم يكن زيادة فى الضبط واقتصادا فى المجهود ، وتصحيحا للمعلومات وتصويبا للاخطاء . الا ان استاذنا شنها حربا لا هوادة فيها على الخليل ، لايترك مناسبة فى كتابه تمر دون ان يكيل فيها اليه نقيصة كانما يريد ان ينفرد وحده بعلم الايقاع من دونه او كانما يريد بذلك ان يستأصله من اذهاننا ويغير من موقفنا ازاءه وما يتسم به من تعظيم وتبجيل وان لم تكن نحترم فيه استاذ سيبويه كما يدعى استاذنا اعتباطا وانما نجل فيه العبقرى الفذ الذى لم يكن ليهدأ له بال حتى يكشف عن مكنون ويجلي عن مغمور . ولعل هذه الظاهرة كانت بارزة لدى محبيه منذ ان كان حيا فيهم » . كما نستفيد ذلك من قول الناظم :

علم الخليل رحمة الله عليه سببه ميل الورى لسيبويه ..
فزاده علم العروض فانتشر بين الورى فاقبل له البشر

لو نترك الكلمة فى هذا الشأن الى صاحب النظرية ، لعلنا نظفر من وراء ذلك بضالتنا : فهو يقول :

« ان النظريات الخاصة بميزان الشعر لم تأت على ايدى شعراء ولكن على يد نحاة او فلاسفة ، وما ابعد النحو والفلسفة عن ميزان الشعر ولقد اضر الخليل بن احمد بعلم الايقاع الشعرى عند العرب كما اضر من قبل فلاسفة اليونان بالايقاع الشعرى عند اليونان ..»

فنحمد الخليل على ما بذل من الجهود فى خدمة العربية باهتمامه بالنحو واللغة ونلومه على اعتراضه للايقاع الشعرى اذ نهض الى دراسته ولم تكن له المؤهلات والمعدات الضرورية لذلك حتى تورط فى الخطا وورط من بعده فى الجهل اذ امتنعوا عن تعقب كلامه بالنقد والمراجعة . لاستبعادهم ان يكون استاذ سيبويه مخطئا كأن لو كان النحو والايقاع شيئا واحدا ..

ويقول ايضا :

«ان علم العروض شغل الناس واقعدهم عن طلب الصواب اذ سحر عيونهم وسد آذانهم وأذهلهم عن السبيل . واما مساويه فكثيرة نكتفى منها بالاهم وهى التفاعيل والدوائر والزحافات والعلل » .

ويقول ... ويقول ... ولكن كل من درس الصرف يعلم ان ميزان « فعولن » يقاس به غضوب وطروب وولوع ولا يقاس به صواب ووديع وسهاد ومنير ووصال وتحاشى وتجافى وقوافى ورواسى بينما كل هذه الصيغ التى جمعت بين صيغ المبالغة ومنتهى الجموع والمصادر والصفات المشبهة واسماء الفاعل والافعال وغيرهما كلها تقاس فى العروض بميزان « فعولن » الذى يزن فى نفس الوقت العبارات التالية :

ملاتم ـ سكرنا ـ ورحنا ـ وداد ـ وكل من درس الصرف يعلم ان ميزان « مفاعيلن » يقاس به مفاتيح ، مصابيح ومحاريث ومواعيد ، ولا يقاس به أكاليل وصهاريج ، وقناديل بينما كل هذه الصيغ فى العروض ميزانها « مفاعيلن » الذى يزن فى نفس الوقت هذه العبارات : ـ على المرء ـ وعن قولى ـ وفى دار ـ الى السفلى ـ لترعانا ـ بلا كيل ـ تريدونا ـ اما ميزان « فعولن مفاعيلن » فانه لا تستقيم له فى العربية مفردة واحدة من حيث صيغتها الصرفية بينما تجد فيه العبارات التالية وزنها :

سـلام على الحب

هنيئـا لـك العيـد

اذا المرء لم يدنس

فعـولـــن ؟

من العروضيين من يرقمها بطريقة عصرية هكذا : ـ ـ ٥ ـ ٥ أو ـ ٥ ٥

ومنهم من يرقمها هكذا : ـ ـا ـا

وهى فى اصطلاح صاحب « النظرية » تكون على حسب الترقيم الموسيقى . أفلا توافقوننى فى ان طريقة الخليل فى عصر لم يكتشف بعد الترقيم الموسيقى

ولم يهتد بعد الى تجزئة الكلمة فى جلاء الى مقاطع صوتية ، كانت طريقة فى حد ذاتها وأدت خدماتها ؟ ألا ترون فى ذلك سر نجاح هذا المنهج وبقائه قائما كل هذه القرون الطوال ؟ اذ هو يعتمد الاحرف المكتوبة فاذا الترقيم فى متناول الخاص والعام بينما الصيغ الثلاثة الاخرى وان كانت اضبط واوضح للعين فانها لا يقوى على قراءتها الا خبير . وان الالحان العربية القديمة انما اندرست لان ابا الفرج واضرابه لم يهتدوا الى مثل ما اهتدى اليه الخليل ؟ ألا ترون معى فى هذه الظاهرة شرحا كافيا شافيا لديمومة المنهج الخليلى وردا على استاذنا حين تعجب قائلا :

« عجبى لهذا العلم كيف قام طيلة مئات السنين على شفا جرف هار من غير ان يتداعى او ينهار »

او حين قال .

« الا ليست التفاعيل صيغ صرفية والخليل من علماء اللغة متأثر بالطريقة المعمول بها فى النحو والصرف »

او حين قال :

« فما بالنا نلتزم بنظريات القرون الوسطى كأن القرون لم تحدث بمرهـا شيئا من التطور فى العقليات والنفسيات والاتجاهات والمبادىء » .

لست اعنى بهذا انى افضل الترقيم الخليلى لان 4 سواء كتبت هكـذا او هكذا ١٧ تبقى دوما 4 ، ولكن الترقيم الخليلى فرض نفسه وما زال يفرض نفسه لاحقاب اخرى من الزمن لان استعماله لا يتجاوز التعرف على المقصور والممدود من الحروف حسب اصطلاح النحويين القدامى والمقـاطع حسب المحدثين ، فكان يسيرا حتى على الذين يتهجؤون الكتابة والقراءة ، لا يحتاج المريد لادراكه الى التعرف على وحدة القيمة الايقاعية وما خف وما ثقل من عناصر الايقاع تلك العناصر التى تغذى بها ذوقه منذ نشأته الاولى .

يقول صاحب النظرية :

« ان النظريات الخاصة بميزان الشعر لم تأت على ايدى شعراء ولكن على يد نحاة او فلاسفة ، وما ابعد النحو والفلسفة عن ميزان الشعر . »

اذن حسب رأيه ، هناك نظرية فيمن يكون له حق تدارس الشعر . ترى ماذا يجب ان يتوفر فى المرء حتى يكون قادرا على استخراج الايقاعات الملازمة للشعر ووضع النظريات الضابطة لها ؟ لنترك الكلمة فى هذا الموضوع لصاحب « النظرية » أليس القائم بالامر بأصدق من الراوى !

ـ يتبع ـ

محمد الهادى بسباس

الاشراقات

شعر : رانبو
تعريب : محسن بنحميده

24 – ليلية سوقية (*)

نَفَسٌ يفتتحُ في الفواصلِ فجاجا مأساويَّة
يُعكّرُ الدّوّانَ المحوريَّ للسّقوفِ النّخرة
يُبعثرُ حدودَ المواقد
يَحجُبُ التّصاليبَ
أسندتُ رِجْلِي إلى أُنبوب
وَنزلتُ والكُرُومَ في تلكَ العربة
التي يتبينُ عهدُها من مراياها المُحدودبة
وألواحِها المُقوّسة وأرائكِها المُنطقّة
عربةِ تَوْمِي المأتميّةِ المُنفَرِدة
كوخِ رُعاة سَذاجتي
تنعطفُ العربةُ على عُشْبِ الطّريقِ الكبيرةِ المَمْحُوّة
وَفِي شائبةٍ في أعلى مِرآة اليمين
تدورُ في دوّامة أشكالٌ قمريّةٌ وأوراقٌ ونُهودٌ
وأخضرُ وأزرقُ داكنانِ يغزوان الصّورة
وفكّ عُدّة العربة قُربَ شائبةٍ من الحصى
أيُصفّرُ هُنا للزّوبعة
وللسّدومات والسّليمات

(*) تابع لما نشر فى العدد 15 – جوينية 79 – س 24 .

وَلِلْوُحُوشِ وَ لِلْجُيُوشِ
وَهَلِ الحُوذِيَ وَالدَّوَابَ الخَيَالِيَّةُ
سَتَسْتَأْنِفُ سَيْرَهَا تَحْتَ أَخْتُقِ الغَابَاتِ
لِتَغُوصَ بِي إلى العَيْنَيْنِ
فِي الْعَيْنِ الحَرِيرِيَّةِ
وَتَبْعَثَ بِنَا مَجْلُودِينَ عَبْرَ الْمِيَاهِ الْمُطَبْطِبَةِ
وَالأَشْرِبَةِ الْمُرَاقَةِ
نَتَمَرَّغُ على نُبَاحِ الدَّرَاوِيسِ
نَفَسٌ يُبَعْثِرُ حُدُودَ الْمَوَاقِدِ

25 ـ بحرية

العَرَبَاتُ الفِضِّيَّةُ وَالنُّحَاسِيَّةُ
الجَآجِيءُ الفُولاذِيَّةُ والفِضِّيَّةُ

تَلْطِمُ الزَّبَدَ
تَرْفَعُ جُذُورَ العُلَّيْقِ

وَتَيَّارَاتُ البَرَاحِ
وَأَخَادِيدُ الجَزْرِ المَدِيدَةُ

تَنْطَلِقُ فِي دَوَرَانٍ نَحْوَ الشَّرْقِ
نَحْوَ أَعْمِدَةِ الغَابَةِ
نَحْوَ بَرَامِيلِ الأَرْصِفَةِ
تَصْدِمُ زَاوِيَتَهَا

دَوَّامَاتٌ
مِنْ نُورٍ

26 ـ عيـد شتـوى

الشّـلاّلُ يـرنّ وراءَ أكْـواخِ المَغـانـي الهـزليَّـةِ
سيُـولٌ تمتـدّ عبْـرَ الحقُـولِ والمَسَـالكِ
المُجَـاورَةَ للمُنْعَطَـفِ
اخضِـرَارَاتُ المَغيـبِ واحمِـرَارَاتُ الغُـرُوبِ
حُـوريّـاتُ أورَاصَ
مُسْـرَحَـاتُ الشّعُـورِ تَسْـرِيحَـةَ الإمْبرَاطُـوريّةِ الأولى
حلَقَـاتُ رَقْـصٍ
سِيبِيـرِيّـةٌ وَصينِيّـةٌ للرّسّـام بُـوشِـي

27 ـ ضيـق

أيُمْـكِنُهَـا
أنْ تغْفـرَ لي طُمُـوحَـاتي المُنْدَكّـةَ على الدّوَامِ
أنْ تُصْلِـحَ نِهَـايَـةَ مَيْسُـورَةَ عهُـودُ فَـاقَتِـي
أنْ يَجْعَلَـنَـا يَـوْمُ فَـوْزٍ نَنَـامُ
على عَـارِ انْعِـدَامِ حِـذْقِنَـا المَحْتُـومِ
أيها النخيلُ الألماسُ
الحُـبَّ
القُـوّةُ
أعلى مِنْ كُـلّ الأفْـرَاحِ وكُـلّ الأمْجَـادِ
وعلى كُـلّ وفِـي كُلّ مَـكَـانٍ
شَيْطَـانٌ إلاَهَ

شَبَـــابُ هـذا المَخْلُـوقِ
أنَـا

لِتَكُنْ مَحْبُوبَة

حَوَادِثُ الرَّوْعَةِ العِلْمِيَّة
وانْتِفَاضَاتُ الأُخُوَّةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ
كَإِعَادَةٍ تَدْرِيجِيَّةٍ لِلصَّرَاحَةِ الأُولى
لَكِنْ مَصَّاصَةَ الدِّمَاءِ الَّتِي تَجْعَلُنَا ظُرَفَاءَ
تُحَتِّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَلَهَّى بِمَا تَتْرُكُهُ لَنَا
وإِنْ خَالَفْنَا كُنَّا أَكْثَرَ إِثَارَةً لِلضَّحِك
التَّدَحْرُجُ
إلى الجُرُوحِ عَنْ طَرِيقِ الهَوَاءِ المُمِلِّ وَالبَحْرِ
إلى التَّعَاذِيبِ عَنْ طَرِيقِ صَمْتِ المِيَاهِ القَاتِلَةِ
والهَوَاءِ المُبِيدِ
إلى التَّنَاكِيلِ الضَّاحِكَةِ
في صَمْتِهَا ذي الصَّخَبِ الفَظِيعِ

28 ـ القطار النفقي

مِنَ المَضِيقِ الأَزْرَقِ إلى بِحَارِ أُوسيَانَ
على الرَّمْلِ الوَرْدِيِّ وَالبُرْتُقَالِيِّ

ـ وَقَدْ غَسَلَتْهُ السَّمَاءُ الخَمْرِيَّةُ ـ
تَصَاعَدَتْ وَتَقَاطَعَتْ شَوَارِعُ البِلَّوْرِ
تَسْكُنُهَا حَالا أُسَرٌ شَابَّةٌ فَقِيرَةٌ
تَسْتَمِدُّ غِذَاءَهَا مِنَ الثَّمَّارِينَ
لا شَيْءَ ذَاعِنِي
المَدِينَةُ
مِنْ صَحْرَاءِ القَارِ تَفِرُّ الخُوذَاتُ

والعَجَلاتُ وَالقَوَارِبُ وَالأَرْدَافُ
تَفِرُّ سَوِيًّا مَهْزُومَةً مَعَ طَبَقَاتِ الضَّبَابِ
المُتَتَابِعَةِ زُمَرا مُرِيعَةً
فِي سَمَاءٍ تَنْحَنِي وَتَتَرَاجَعُ
وَتَهْوِي فِي أَنْحَسِ دخَانٍ أَسْوَدَ
يَقْدِرُ على بَعْثِهِ المُحِيطُ فِي حِدَادٍ

المَعْرَكَةُ

ارْفَعْ رَأْسَكَ

ذلكَ الجِسْرُ الخَشَبِيّ المُقَوّسُ
آخِرُ مَبْقَلاتٍ سَمَرِيَّةٍ
تِلكَ الأَقْنِعَةُ المُزَخْرَفَةُ على نُورِ
المِصْبَاحِ المَجْلُودِ بِسَوْطِ اللَّيْلِ البَارِدِ
إِلاَهَةُ المِيَاهِ السَاذِجَةُ ذَاتُ الفُسْتَانِ الصَّاخِبِ
فِي أَسْفَلِ النَّهْرِ
الجَمَاجِمُ المُنِيرَةُ فِي غَرَسَاتِ البِسِلَّى
وَالتَّخَايِيلُ الأُخْرَى

الرِّيفُ

طُرُقٌ تُحِيطُهَا سِيَاجَاتٌ وجُدْرَانٌ
تَكَادُ لاَتَحْتَوِي خَمَائِلَهَا
وَالأَزْهَارَ الفَظِيعَةَ التِّي قَدْ نُسَمِّيهَا
قُلُوبا وَشَقِيقَاتٍ

دِمَشْقُ المُهْلِكَةُ طُولا
مُمْتَلَكَاتٌ لأَرِسْتُقْرَاطِيَّاتٍ خَيَالِيَّةٍ
فَوْقَ رِينَانِيَّةٍ وَيَابَانِيَّةٍ وَقَوَارَانِيَّةٍ

لا تـزالُ لـهـا قابليـَّـةُ مـوسيقـى الأقـدمـيـنَ
وقنـادقُ انقطعـتْ إلى الأبـدِ عَنْ فتـحِ أبـوابـهـا
وأميـراتٌ
وإذا لـمْ تـكنْ شـديـدَ الإرهـاقِ فـدرْسُ الكـواكـبِ
السَّمـاءُ
الصَّبَـاحُ الـذي كُنْتَ فيـهِ تتخبَّـطُ معَـهـا
عبْرَ شظـايـا الثلْـجِ
الشفـاهُ الخُضْـرُ والمـرايـا والـرايـاتُ السّـوداءُ
والأشعـّـةُ الـزرقـاءُ
وعُطُـورُ شمْسِ الأقطـابِ القـرمزيـّةُ
تلكَ قـوتُـكَ

29 ـ وحشـي

بعْـدَ الأيّـام والفصُـول والكـائـنـات والبُلْـدانِ
بعْـدهـا بكـثيـر
الجَنَـاحُ ذُو اللَّحْـمِ الـدّامِـي على حـريـرِ البحـارِ
والأزهـارِ القُطبيـَّـةِ الشَّمـاليَّـةِ
(لا وُجُـودَ لهـا)
تعافيْنـا مِنْ أبْـواقِ الجـوقـاتِ البُطُـوليـَّةِ العتيقـةِ
التـي لا تـزالُ تُصيبُ مِنَّـا القلْـبَ والـرَّأسَ
بعيدا عَنِ القتَلَـةِ الأقـدمـيـنَ
يـا للجنَـاحِ ذي اللَّحْـمِ الـدّامِـي على حـريـرِ البحـارِ
والأزهـارِ القُطْبيـَّـةِ الشَّمـاليَّـةِ
(لا وجُـودَ لهـا)
يـالـهـا مِنْ لـذائـذَ

النِّيرانُ المُتَأجِّجَةُ
المُمْطِرَةُ بِرَشَقَاتِ الصَّقيعِ المدْفَعِيَّةِ
يَالَهَا مِنْ لَذَائِذَ
نِيرانُ مَطَرِ رِيحِ المَاسَاتِ يَرْمِي بِهِ
قَلْبُ الأَرْضِ المُتَفَحِّمِ عِنْدَنَا إلى الأَبَدِ
أَيَّتُهَا الدُّنْيَا
(بَعِيدا عَمَّا يُسْمَعُ وَيُحَسّ
مِنَ الاعْتِزَالاَت القَدِيمَةِ وَالشَّعْلاَتِ العَتِيقَةِ)
النِّيرانُ المُتَأجِّجَةُ وَالزَّبَدُ الرَّاغِي
المُوسِيقَى تَحْوِيلُ الهَاوِيَات
واصْطِدَامُ قِطَعِ الجَلِيدِ بِالكَوَاكِبِ
أَيَّتُهَا اللَّذَائِذُ
أَيَّتُهَا الدُّنْيَا
أَيَّتُهَا المُوسِيقَى
وَهُنَاكَ

الأَشْكَالُ والأَعْرَاقُ وَالشَّعُورُ وَالعُيُونُ
طَافِيَاتٌ
وَالدُّمُوعُ البِيضُ فَائِرَاتٌ
أَيَّتُهَا اللَّذَائِذُ
وَصَوْتُ المَرْأَةِ نَافِذ إلى
أَعْمَاقِ البَرَاكِين
وَالغِيرانِ القُطْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ
الجَنَاح ...

رأي جديد في أصل الموشحات

بقلم : محمد الحسناوي

في أثناء تحضير رسالتي (الفاصلة في القرآن : علما وفنا) صادفت ظواهر موسيقية غنية في الفواصل (كلمات أواخر الآيات) ، فهناك الفواصل الموحدة والمتنوعة . والفواصل المتنوعة : بعضها متقارب وبعضها متباعد ، بعضها على شكل مقاطع وبعضها الآخر على شكل لازمات متكررة لاغراض فنية ، لكن الذي لم يكن يخطر لي على بال أن أجد تلوينات موسيقية تلقي ضوءا جديدا على جذور الموشحات .

أصل الموشحات

اختلف الباحثون ـ من عرب ومستشرقين ـ حول الاصل الذي نشأت منه الموشحات الاندلسية ، ودارت اختلافاتهم حول ثلاثة محاور :

1 ـ القول بأن فن الموشحات تطور عما انتهى اليه الشعر العربي بعد ظهور تنويعات من التقفية لم تكن معروفة قبل العصر العباسي مثل المزدوجات والمخمسات والمسمطات .

2 ـ القول بتأثير البيئة الاندلسية ، كجمال الطبيعة أو حياة اللهو والمجون وانتشار السمر والغناء .

3 ـ القول بالاصل غير العربي .

ونضيف قولا رابعا الا وهو الاصل القرآني . انه قول لا نقطع به على سبيل الجزم ولكن نؤكد أنه ليس أضعف الاقوال . على ان القول بأن الموشحات ثمرة لما انتهى اليه الشعر العربي من تطور ، او نتيجة للبيئة الاندلسية ، ينتهي الى قولنا بالاصل القرآني بشكل ما . اما الاصل الاعجمي فهو يحتاج الى مراجعة .

نقد الحجج المعروفة

أهم الحجج التى اعتمدها القائلون بالاصل غير العربى ما يلى :

1 ـ نظم الموشح على طريقة الفقرات (الابيات : والبيت قفل واغصان) وهى طريقة غريبة ـ عندهم ـ تغاير ما جرت عليه القصيدة العربية من الابيات ذات البحر الواحد والقافية الواحدة (1) .

2 ـ ختمه بالخرجة ، وهى (آخر قفل من الموشح ... ويفضل الوشاحون ان تكون عامية ، لبعث الهزل والظرف فى الموشحة ، الا فى المديح) (2) ، والخرجة ظاهرة لم تؤلف فى الشعر العربى ، وهى ـ عندهم ـ حلقة تدل على الاصل الاعجمى (3) .

3 ـ خلو الموشح من الموضوعات التى تميز الشعر العربى من غيره ، كوصف الرحلات فى القفار المهجورة وصفة حياة البداوة والتنقل والتحدث عن المواقع التى غادرتها القبيلة ... ولانه يتحدث عن اعياد ومواسم لا توجد الا فى التقويم اللاتينى ، ولاستعماله الفاظا وعبارات من أعجمية الاندلس مختلطة باللغة العربية الدارجة (4) .

4 ـ تأخر ظهوره فى المشرق (5) .

5 ـ تفوق الاندلسيين فيه وقصور المشارقة (6) .

6 ـ ازدراء انصار الشعر التقليدى للموشح (7) .

---

(1) فن التوشيح ـ د . مصطفى عوض الكريم ـ دار الثقافة ببيروت : ص 115 .
(2) فى الادب الاندلسى ـ د. جودت الركابى ـ دار المعارف بمصر : 298 ، وفن التوشيح : 22 ، وكلاهما اعتمد (دار الطراز) لابن سناء الملك ـ بتحقيق الركابى : 31 .
(3) فن التوشيح : 109 ـ 110 .
(4) المرجع السابق : 110 .
(5) فى الادب الاندلسى : 286 ـ 293 ، وفن التوشيح : 97 ـ 99 .
(6) فن التوشيح : 110 ـ 112 .
(7) المرجع السابق : 112 ـ 115 .

7 ـ ظهور التكلف في الموشحات التي نظمها أوائل الوشاحين الاندلسيين ، لانهم كانوا يعانون من تعريب الاغاني الاعجمية ، ومن التقييد بالاوزان العربية (8) .

8 ـ التجديد والطفرة فيما درجت عليه الشعوب من أوزان لاشعارها .. أمر نادر (9) .

9 ـ خروج كثير من الموشحات ـ وهي الجيدة ـ عن أوزان الشعر العربي (10) .

هذه الحجج على كثرتها مردودة بعد التمحيص :

فالحجة الثامنة تنقض السابعة . لان القول بعدم الطفرة في التجديد ينسحب على القول بتطور الموشح في النمو من التعثر الى النضج . أما ازدراء أنصار الشعر التقليدي للموشح فظاهرة تشمل أشكال التجديد المختلفة منذ محاولات الشعراء المولدين المزدوجات والمخمسات ، ولا تقتصر على الموشح وحده .

أما سبق الاندلسيين الى ابتكار الموشح والتفوق فيه ، أو تأخر المشارقة في النظم على منواله والتقصير فيه ، فأمر متصل الى حد كبير بالخط البياني لتطور فن الشعر لدى الفريقين . فاقدم تاريخ لظهور الموشحات يرجع الى الفترة (275 ـ 300 هـ : أقدم وشاح هو مقدم بن معافر القبري) ، حين دخل أدب المشارقة طوره الثالث والاخير في العهد العباسي ، مرحلة الاستقرار والتدرج نحو الجمود ، بينما كان الادب الاندلسي يتهيأ للانتقال من طور التقليد الى الاستقلال فالتجديد .

أما القول بخلو الموشحات من الموضوعات التقليدية كوصف حياة البداوة ، وانطوائها على آثار أعجمية من ذكر مواسم وألفاظ غير عربية ، فظاهرة فنية أخرى عرفت في الشعر العباسي ـ لا سيما مزدوجاته ومخمساته ومسمطاته ـ ولم تحمل النقاد على القول بأن هذا الشعر من أصل غير عربي . ثم ان جانب الشكل في الشعر الاندلسي طاغ على مضمونه ، وعلى الاخص جانب الايقاع الموسيقي في الموشحات . ومتى كان الحكم يقرر اعتمادا على جزء يسير لا على الاجزاء الكثيرة بله (الكل) ؟

---

(8) المرجع نفسه : 111 .
(9) // نفسه : 117 .
(10) // نفسه : 66 ـ 67 .

ان أهم حجة جديرة بالمناقشة المستفيضة : هى مدى مباينة المعمار العام فى الموشح لمعمار الشعر القديم من زاوية الموسيقى ، ثم ختم الموشحة بالخرجة .

حتى المعمار العام فى الموشح ـ وتنوع القافية عماده ـ له حلقة تصله بالشعر العربى ، تلك هى تقفية المزدوجات والمخمسات والمسمطات . فأين الحلقة التى تصله بشعر أعجمى ، جليقى أو رومانى أو غير ذلك ؟

نظام (الخرجة) أولا وآخرا بؤرة الخلاف .

أهمية الخرجة

لنعد الى تعريف الخرجة : (آخر قفل من الموشح يسمى الخرجة ، ويفضل الوشاحون أن تكون عامية ، لبعث الهزل والظرف فى الموشحة ، الا فى المديح) . من هذا التعريف نلحظ الشروط التالية :

أ ـ موقعها : آخر قفل .

ب ـ غايتها : بعث الهزل أو الظرف .

جـ ـ طبيعتها : عامة .. الا فى المديح ، أو ان تكون غزلة جدا ، أو مستعارة من خرجة مشهورة أو بيت شعر مضمنا (11)

د ـ أهميتها : ذكر ابن سناء الملك انها (ابزار الموشح وملحه وسكره ، ومسكه وعنبره) وذكر (انه ينبغى أن يسبق الخاطر اليها ، ويعملها من ينظم الموشح فى الاول . وقبل أن يتقيد بوزن وقافية) (12) .

ان أهمية (الخرجة) أو الجزء الاخير فى النص الادبى ليست مقصورة على الموشح الاندلسى ، بل هى جزء من ظاهرة فنية عامة تنتظم الاعمال الفنية ، أدبية وغير أدبية، كالموسيقى مثلا (13). ونستأنس هنا بجهود الشاعرة الناقدة نازك الملائكة ، التى كشفت عن ثلاثة أشكال فى أبنية القصائد : الهيكل المسطح والهيكل الهرمى والهيكل الذهنى . وهذا الشكل الاخير يشيع فى الموشحات . تقول السيدة نازك : (واكثر ما ينجح هذا الهيكل فى القصائد

---

(11) دار الطراز : 13 ـ 23 .

(12) دار الطراز : 32 ، وفن التوشيح : 22 .

(13) انظر مقال (النهايات السعيدة فى الموسيقى) ـ محمد رشاد بدران ـ مجلة (المجلة) ع 92 ـ ص 87 .

التى تحتوى على فكرة يناقشها الشاعر بالامثلة المتلاحقة) اما عن الخاتمة فتقول : (والخاتمة فى الهيكل الذهنى تستدعى شيئا من البروز والجهورية ، فقلما تتلاشى هذه الهياكل فى سكون ، لخلوها من عنصر الزمن ... فى الهيكل الذهنى يحتاج الى ان يختمها بحكم عام ينهى المشكلة الفكرية التى أثارها ، وذلك باحداث موازنة بين نقط الحركة الذهنية كلها) (I4)

ومن يتأمل الدور الذى تنهض به الفواصل (المنفردة) فى ختام سور (العلق ـ الضحى ـ الفجر ـ البينة ـ المسد ـ المزمل) يجد المثل الاعلى للخاتمة التى توازن مقاطع السورة جميعا . لنتأمل الفاصلة التى تختتم بها سورة (الضحى) قال تعالى :

(والضحى
والليل اذا سجى
ما ودعك ربك وما قلى
وللآخرة خير لك من الاولى
ولسوف يعطيك ربك فترضى
=
ألم يجدك يتيما فآوى
ووجدك ضالا فهدى
ووجدك عائلا فاغنى
=
فاما اليتيم ، فلا تقهر
وأما السائل فلا تنهر
=
وأما بنعمة ربك فحدث)

نزلت هذه السورة ـ كما هو معلوم ـ بعد فتور الوحى وأبطاء جبريل على الرسول محمد ـ عليهما السلام ـ للرد على من قال : (قلاك ربك)

(I4) قضايا الشعر المعاصر ـ نازك الملائكة ـ ط 3 ـ ص 225 و 228 .

أ ـ فى المقطع الاول اقسم تعالى مؤكدا حبه لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعظم ما يعده به .

ب ـ فى المقطع الثانى فصل تعالى بعض ما أنعم عليه فى الدنيا .

ج ـ فى المقطع الثالث جدد له العطاء التوجيهى ، وهو الاصل .

د ـ فى المقطع الاخير ـ وهو موضع شاهدنا ـ حكم عام يشمل العطاء فى الماضى والحاضر والمستقبل ويوازن مقاطع السورة جميعا : (وأما بنعمة ربك فحدث)

ان تفضيل الوشاحين أن تكون الخرجة عامية ـ وقد وردت فصيحة على قلة ـ يرجع الى الغاية منها .. بعث الهزل والظرف . وهذا ما يسوقنا الى الحلقة المعتمدة لدى من يزعم أن أصل الموشحات أعجمي ، ودليله لفظى جـزئـى ، ودليلنا عام نستمده من علم الجمال ، وبالذات من أحد قـوانيـن (الايقـاع) الجمالى ، الا وهو قانون (التغير) المعتمد على صدمة فنية مفاجئة تخـالـف اشباع التوقع التكرارى ، باشباع أشد وأعمق (15) .

دور أبى نواس

لقد فطن أبو نواس بحسه الفنى للسحر الجمالى الذى ينطوى عليه قانون (التغير) فراح يستثمره أبعد استثمار فى خواتم قصائده ، لا سيما قصائـد الغزل والمجون ، فطورا يختمها ببيت من الشعر القديم على سبيل التضمين (16) وتارة يقتبس نصا دينيا من قرآن كريم أو حـديث شريـف عـلى سبـيـل التماجن (17) ، مستفيدا من مفاجأة الصدمة السعيدة الناشئة من تحـريـف الكلم عن مواضعه ، ونقله من سياق الجد الى سياق اللهو ، يقول فى آخـر قصيدة له :

---

(15) الاحساس بالجمال ـ جورج سانتيانا ـ بترجمة البدوى : 116 ، ومبادىء النقد الادبى : 1 . رتشاردز ص 193 .

(16) انظر ديوان أبى نواس ـ تحقيق الغزالى ط 1953 ص 9 و 52 و 65 و 70 و 75 و 84 و 90 و 100 ...

(17) وانظر ديوانه ، الصفحات : 237 و 211 و 250 و 265 و 77 و 281 و 272 .

ببابِ بنية الوضاح ظبي   على ديباجتي خديه ماء
كماء الدن يسكر من رآه   فيخفت والقلوب له سباء
(يعذب من يشاء) بمقلتيه   اذا رنتا (ويفعل ما يشاء) (18)

وبوسع الدارس الجاد ان يتتبع هذه الظاهرة فى شعر المجون منذ أبى نواس الى أصحاب المزدوجات والمخمسات والمسمطات فالوشاحين ، ليقرر بكثير من الاطمئنان تلك العلاقة الوثيقة بين الخواتم فى قصائد ابى نواس ، وبين (الخرجة) فى الموشحات (19) .

حسبنا الآن ايراد بعض الامثلة . قال مدرك بن على الشيبانى فى ختام مزدوجة له (معجم الادباء 19 / 135 ــ 146) :

فانظر أميرى فى صلاح أمرى   (محتسبا فى عظيم الأجر)
مكتسبا فى جميل الشكر   فى نشر ألفاظ ونظم شعر

وقال شمس الدين بن جابر الضرير فى آخر مسمطة له (نفح الطيب 2 / 31) :

حسبى وماذا عناد   هم المنى والمراد
وان عن الحق حادوا   أو جاملونى وجادوا
يا من به الكل سادوا   والكل عندى سداد
(فليفعلوا ما أرادوا   فانهم أهل بدر)

هذا فى غير الموشحات ، أما فى الموشحات فيقول ابو بكر بن بقى فى قفل موشح يختمه :

بالبين يا عابد الحق   جرى القدر
فالشوق عندى لا يبقى   ولا يذر)

كما يقول لسان الدين بن الخطيب فى آخر موشحة : (نفح الطيب 4/226)

فتهنأ من حسنها البهج   بحياة النفوس والمهج
واستمعها ودع مقال شجى: (قسما) بالهوى (لذى حجر)
ما لليل المشوق من فجر

---

(18) قال تعالى فى سورة ابراهيم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) ، والابيات فى ديوان ابى نواس : 328 .

(19) راجع كتاب (ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار) ــ د. عبد العزيز الاهوانى ط 962 ــ ص 204 .

هذه العلاقة غير الخفية بين النص الديني المقدس ، وبين خرجات ابى نواس والمزدوجات فالموشحات ، يمكن أن توضح كثيرا من المعميات في والبحث عن أصل الموشحات . وقولنا هذا لا ينطبق على الخرجة وحدها ، بل على شكل الموشح وتنوع القوافى مقطعا مقطعا مع ثبات قافية قفل ملتزم .

المعمار العام

بقى علينا أن نعرض نموذجا من سور القرآن الكريم ، يتضمن الشكل المعمارى الذى يظن أن الموشحات الاندلسية تشبهت به أو تأثرته عن وعى أو غير وعى . اليك سورة (المرسلات) :

(والمرسلات عرفا
فالعاصفات عصفا
والناشرات نشرا
فالفارقات فرقا
فالملقيات ذكرا
عذرا أو نذرا

انما توعدون لواقع
فاذا النجوم طمست
واذا السماء فرجت
واذا الجبال نسفت
واذا الرسل أقتت
لاى يوم أجلت
ليوم الفصل
وما أدراك ما يوم الفصل

ويل يومئذ للمكذبين
ألم نهلك الاولين
ثم نتبعهم الآخرين
كذلك نفعل بالمجرمين
ويل يومئذ للمكذبين
ألم نخلقكم من ماء مهين
فجعلناه في قرار مكين

الى قدر معلوم
فقدرنا فنعم القادرون
ويل يومئذ للمكذبين
ألم نجعل الارض كفاتا
أحياء وأمواتا
وجعلنا فيها رواسى شامخات
واسقيناكم ماء فراتا
ويل يومئذ للمكذبين
انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون
انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب
لا ظليل ولا يغنى من اللهب
انها ترمى بشرر كالقصر
كأنه جمالات صفر
ويل يومئذ للمكذبين
هذا يوم لا ينطقون
ولا يؤذن لهم فيعتذرون
ويل يومئذ للمكذبين
هذا يوم الفصل جمعناكم والاولين
فان كان لكم كيد فكيدون
ويل يومئذ للمكذبين
ان المتقين فى ظلال وعيون
وفواكه مما يشتهون
كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون
انا كذلك نجزى المحسنين
ويل يومئذ للمكذبين
كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون
ويل يومئذ للمكذبين
واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون
ويل يومئذ للمكذبين
فبأى حديث بعده يؤمنون
لعلك لاحظت ما يلي :

١ ـ نهوض المعمار الموسيقى فى السورة على وحدات موسيقية متتابعة ، سمى الوشاحون ما يقابلها فى الشعر أسماطا .

2 ـ تتألف كل وحدة موسيقية قرآنية من قسمين : الاول تغيرت فاصلته من وحدة الى اخرى ، سمي ما يقابله في الموشح (السدور) او (البيت) . الثاني التزمت فاصلته ، سمي ما يقابله في الموشح (القفل) ، كما سمي (اللازمة) في أحوال معينة .

3 ـ الانسجام الموسيقي في كل قسم . فالقسم الاول من كل وحدة يكاد يوحد الفاصلة في كل وحدة مستقلة . وكذلك القسم الملتزم (ويل يومئذ للمكذبين) لا يقتصر التناظر فيه على تماثل التقفية او الوزن ، بل يصل الى التكرار المقصود لاغراض فنية ودينية ، يدرسها قانون (التكرار) في قوانين (الايقاع) الجمالية .

4 ـ توفر الايقاع الموسيقي الرفيع للآيات : من قرائن وفواصل ، على الرغم من مخالفتها للوزن العروضي للشعر العربي .

5 ـ الآية : (فبأي حديث بعده يؤمنون) تعقب على السورة بأسرها ، وتبرز بصيغتها الانشائية ، ومخالفة نظمها للقفل الملتزم ، وتضمنها حكما عاما ينهي مشكلة التكذيب بالدين ويوم الفصل بعد عرض وسائل الاقناع العقلية والنفسية ، مما حام حوله الوشاحون في (الخرجة) على طريقتهم الخاصة ، ومع الفارق .

نحن بالطبع لا نتوقع أن نجد في القرآن الكريم شروط الموشح التي استنبطها النقاد بعد تطور الموشحات واستقرارها ، لكننا نتلمس الجذور ، كما اننا يجب ان نحاكم الموشحات الى القرآن لا العكس . ولعل أهم ملحظ نشير اليه في مقاطع هذه السورة المعجزة .. بإكبار ، تلك الحرية التي تمتعت بها المقاطع طولا وقصرا ، ثم التزام (الفاصلة) الموحدة او تنويعها .

وأخيرا تستوقفنا ظاهرة فنية أخرى ، اتكأ عليها من قال بأصل الموشح غير العربي ، ألا وهي حرص الوشاحين على الخروج عن عروض الشعر القديم ، حتى ان اكثر الموشحات وأجودها كانت كذلك (20) . وآيات القرآن الكريم على ما فيها من موسيقى ربانية رفيعة سبقت الى هذا النهج وحققت المعجزة .

وغني عن البيان أن المقارنات التي عقدناها بين القرآن الكريم أو جزء منه ، وبين الوان أدبية كالشعر ، لا تغض من قدر القرآن الكريم ، ولا ترفع من رتبته لانه غني عن الاطراء ، عصي على الازراء ، لما ينطوي عليه من قداسة وشخصية فنية فذة عالية . ولنا في علمائنا القدامى كالباقلاني والزركشي والسيوطي أسوة حسنة .

محمد الحسناوي

---

(20) دار الطراز : 33 . في الادب الاندلسي : 300 . فن التوشيح : 66 ـ 67 .

وأخيراً ... كان اللقاء في الحلم!

شعر : محمد منذر لطفي

الى اسبانيا .. ذات الشعر الغجرى .. والعينين الدافئتين ..!

★

كان الوقت ربيعا فى سورية .. والليل يمد على الكون جناحيه .. ونيسان يزف السحر مع العطر .. وكان النوم يداعب أجفانى .. والاحلام الوردية تسلمنى لبحار النشوة .. هل الحلم الرائع .. كان أغانى تحملها الامواج السكرى .. حين أطلت جنيات البحر عرائس يعزفن .. وكان القارب يمضى فى التطواف الحالم .. يرتاد مرافىء لم تخطر فى بال شراع .. كنت الربان .. وكان القارب حبى الشرقى المسحورا ..!

★

ومضيت أرش الزهر بدرب الفلك .. وأحرق فى ليل الاشواق بخور الحب..

أضىء قناديل الاحلام .. لعل البحر يفتح ـ رغم الليل ـ جمالا أسطوريا يحمل فى جنبيه الحسن المنتظر كواكب وبدورا .. ولآلىء وعطورا ..!

★

(*) ترجمت هذه القصيدة الى اللغة الاسبانية ، ونشرت بتاريخ 22 / تشرين الاول عام 1977 فى جريدة [الامانسير ـ الشروق] التى تصدر فى [ثراغوثا] .

وأطلت فى الافق ـ كما الشمس ـ بلاد (1) عاشت فى بـالى عبر الايـام الحلوة .. منذ البدء .. نجوما وزهورا ..!

★

أشتاق اليك العمر .. الى الشعر الفجرى الفـاحم .. والعينين الـدافئتين الشهلاوين .. فهل فكرت برد العشق الى زمن القطف ورادا .. وزمـان الزرع بـذورا ..؟

★

أحببتك كل الحب .. فما بال المحبوب يبادلنى الانسام هجيرا ..!

★

ها أنت ـ ورغم البعد ـ وصلت اليك .. رأيتك حسنا لا أبهى .. جنات تجرى بالانهار .. سهولا ضاحكة نشوى .. وجبـالا سـاحرة جذلى .. دنيـا تتماوج بالاقمار .. وليلا يرفل بالعشاق .. مرافىء تهمى بالفيروز .. ويغسل ماء البحر يديك مع الرجلين .. فما أشهاك جمالا صهر العرب مع الافرنج .. فكان فريدا مشهورا ..!

★

يا أنت .. وحبك فى قلبى عاش الايام .. وعاش الاعوام .. وغنى للعشاق دهـورا ..!

★

يا أجمل وردة حب حمراء بروضة أوربا .. تتزين فيها غـانية تتـدلى من أذنيها الاقراط الفجرية .. تضرب بيديها الاصناج .. وتضـرب بالرجـليـن الارض .. تظل تلوب .. وفارسها كالظل يلوب .. تدور .. يدور . وأنغام (2) حرى تتصاعد .. تحملنا عبر الآفاق السحرية .. كى نشهد متع الليل .. وكى نقطعه رقصا وغراما .. ونساء وخمورا ..!

★

---

(1) اسبانيا .
(2) الفلامنكو .

تبرز نهدا عذرى التكوين .. يخبىء برعمه استحياء .. فاذا برحه الشوق الى الحب تعرى كليا .. وتحدى .. لكن ظل غريرا .

★

يا قصة آلاف الاردية الحمراء .. وقصة آلاف الاسياف البيضاء .. تجيد على الايام مصارعة الثيران ترى أنت حكاية « روما العصر » .. وذا « قيصر » يمضى للحرب وللنصر يرود بموكبه الساحات .. ويركز فى «مصر» وفى «الغال» (3) بنودا .. يصنع للرومان المجد حدائق وجنانا .. ومعابد وقصورا ..!

★

حين وصلت اليك مع الحلم الاخضر .. كان الليل « سنونو » يضرب بجناحيه الافق .. فتساقط بعض الشهب العاشقة جداول ضوء .. تتهاوى أسياف لجين .. والبعض تدلى حبات لآل تتألق فى صدر الكون حريرا .. ضم حريرا ..!

★

كان القمر العاشق طاووسا يختال .. ويروى للنجم حكايا .. يبدو حينا كالذهب السيال .. وحينا ينهل ضياء فوق البر وفوق البحر .. وحينا يطفو فوق الغيم صبيا أشقر مغرورا ..!

★

يا أغنية الحب الاسمر والاشقر والاخضر أحببتك .. أحببت جمالك . أحببت مغانيك العذراء كثيرا ..

★

يا لوحة « فنان » موهوب .. عرف بفن كيف يزاوج بين الالوان .. فضجت بالاعراس الشرقية والغربية .. راحت تملأ قلب الكون مسرات .. راحت تغمر وجه العالم أنسا وحبورا ..!

★

---

(3) فرنسا .

أحببتك منذ طفولتي الاولى ، من غير مشاهدة .. لكن حين رأيتك في مملكة النوم .. وشاهدت جمالك .. أورق حبي .. أزهر حتى صار ربيعا .. أثمر حتى صار بصحراء حياتي ـ منذ اليوم وحتى الابدية ـ واحة شوق . وغديرا ..!

★

حتى صار قناديل بليل العشاق .. وضوء القنديل .. شموع القنديل تزيد العاشق شوقا .. تجعله في دنيا الحب أميرا ..

★

كنت .. كما قال الشعراء العرب قديما .. والاسبان (4) حديثا .. نبع حكايا الحسن الساحر .. سوف تزيد القلب هياما .. والروح سعيرا ..

★

سأظل أحبك « اسبانيا » .. ويظل بياني يغرف من بحر الحب قصائد ما شاءت عيناك لها ابحارا .. وعبورا ..!

★

الشمس ترش الدفء .. فتحت عيوني .. كان الصبح الشرقي يداعبني مزهوا .. وأريج الورد .. وزهر الليمون .. يطل نجوما بيضاء بصبح « دمشق » الاندلسية وهي تماوج بالعطر وألحان الطير .. وكنت أغوص بدفء سريري .. أنظر من نافذتي لجمال بلادي الغامر .. كان الواقع ظل الحلم المسترسل .. يا الله .. احبك ألفا يا « أندلس » .. وأحبك ألفا يا « سورية » .. أصبحت بحبكما يا قمر الغرب .. ويا قمر الشرق أسيرا ..!

★

أغمضت جفوني ثانية .. راودت الحلم الاخضر أن يمتد .. ويوغل حتى يصهرني بالواقع .. حتى أولد وجها عصريا .. أحمل سحر الشرق .. وسحر الغرب .. فيولد في ميلادي العالم وجها متحدا .. وزمانا منصورا ..!

محمد منذر لطفي
سوريا ـ حلب ـ

★

---

(4) الشاعر / غارسيا لوركا .

لعبة الأقدار

قصة : الناصر التومي

كان البحر هادئا سدوء المستسلم لقدر محتوم ، عندما خطا عمر خطـواته الاولى على الرمال الذهبية ، فانغرست اقدامه الحافية وشعر بدغدغـة خفيفة بين اصابعه ، ذكرته بعبث جدته عندما كان صبيا . انها ايام حلوة حقا ، لم يكن يعرف لا الحزن ولا القلق ولا الضجر ، عالم « يوتوبي » بحق كانت المعالم تبدو واضحة وضوح الارض والماء والسماء ، الجبل جبل والبحر بحر والسهل سهل ، اما الان فلم يعد يميز هذه المعالم ، انها تتغير من حين الى آخر فاذا هي سراب وعبث .

أخذ مكانه كالعادة على الحجر الاسود ، كان ضخما عندما كان صغيرا ، كسرته الامواج الصاخبة الهادرة بلطماتها المتكررة ، وكان الانكمـاش وكـان الذوبان البطيء . تحسس الحجر ، لقد عهده مأوى لالاف الحشرات البحرية ، تنخره وتعبث به ولكنها بدورها لا تستطيع البقاء في أمان ، ان الامواج المجنونة تخرجها من مكامنها قسرا فتتبعثر على صفحة الماء من جديد فتغير ماء مأواهـا وتأتي حشرات أخرى لتأخذ مكانها بالحجر الاسود ، وهكذا فلا شيء يبقـى على الساحل ، كل شيء يتغير ، فلا الامواج باقية ولا الصخور ولا الرمال ولا الحشرات انها في تحول دائب .

من يوم فقد ذراعيه على هذا الساحل وهو يتأمل ، يبعثر افكاره عبر الاجيال والازمان ، يشتتها فوق كل حبة حصى ، بين كثبان الرمـال ، في ثنايا كـل موجة هادئة وكل موجة هادرة تلاحق طير النورس ، حتى اذا ما تجمعت ازدادت حدة ضجره . كان يوم نحس ، انه يتذكر تفاصيله لحظة بلحظة ، كان كل شيء يبعث على الوحشة وعدم الاطمئنان ، سحب في بياض صارخ وسحب أخرى في سواد قاتم موحش ، ريح ثلجية تلسع وجهه والظاهر من جسده ، فتحين باقي الجسم الى كتلة من جليد . كان الصقيع قاتلا فيما مضى ولكن لم يكن يرتعش ، اما في ذلك الصباح فأصبح كتلة من الارتعاش والاضطراب .

الكوخ يرتج وكذلك كل ما وقع عليه بصره ، أوانيه التى الفها من زمان والتى أنست لمساته أصابها الجزع والهلع ، لا تريد ان تركن للهدوء وهى فى قبضته ، انها تتمرد عليه فى ارتباك عجيب رجلاه تلمسان الرمال فى تردد غير الواثق من أرضية شاطىء الامان وكأنها ما اعتادت حرثه جيئة وذهابا فى ليالى الشتاء بعواصفها المجنونة الثائرة وفى الصيف فى الليالى المقمرة الساحرة تسرد أسطورة جمال هذا الكون .

كانت حقق المتفجرات ترقص رقصة الموت داخل السلة ، وترتطم ببعضها وكلما حاول تهدئتها ازدادت عنتا وعفرتة ، لطماتها وصفعاتها تسحق هدوءه ، تكبت انفاسه ، تضيق عليه الخناق ، تبعثره على كل حبة حصى ، ترجمه صخور الشاطئ الضخمة ، ضحاياها تعد بالعشرات ، مآسيهم لا تزال تتراقص امام عينيه ، تحيط به من كل جانب ، تعتصره داخل احدى الثغرات الصخرية أين تسكن الحشرات البحرية « سعيد وصالح وخليفة » رهط فقدوا حاسة الإدراك ، شلت افكارهم ، احيلوا على المعاش بلا معاش ، انزووا فى اركان تبعد عن هذا الشاطىء ، هاماتهم مشلولة ، مشوهة ، يزورون الشاطىء من حين لآخر ، لقد كان أصل البلاء ، ومع هذا يحنون اليه ، يتحسسون خطواتهم والصخور التى حملتهم السنين الطوال وتنزل دموعهم مبللة الشاطىء كل الشاطىء .

الانفجارات تتوالى فى كل مكان وفى كل انفجار تهتز أفئدة وتهلع نفوس ... يا ساتر يا رب ... خير يا رب ... يا حافظ يا رب ... الاعين تراقب صفحة الماء تخرق ... آلاف الثقب وعندما تبصر الطريدة تمتد اليد الى الحقة وتشعل « الفتيل » ويكون الانتظار ، تلك اللحظة الرهيبة ، تضيع فيها نفوس وتسرع دقات القلب ويتكهرب الجسم والشاطىء والبحر والسماء ويرتج كل شىء ، حتى طيور النورس تصفع الماء وتنطلق هاربة جزعة .

تكثر طيور النورس فى ذلك الشاطىء وهى لا تفتأ تقوم بعروضها التى كانت تجذب انتباهه ، فيبقى ساكنا محدقا فيها بلا حراك فينسى ما أتى من أجله ، ولما أصابه الدهر بما أصابه أصبحت مجموعات طيور النورس تسليته الوحيدة ، الصور الثابتة والمتحركة تهرب من واقع مرير قاتل الى عالم المرح والحرية والنظام ، الى عالم النسق والتناسق ، ها هى تنطلق من اسفل الى اعلى فى زعامة محنك صلف ، وهاهى تحجب صفحة الماء عن السماء فى شكل ، فى أشكال الطائرات الحديثة ، تسبح فى خيلاء ، مطمئنة ، مرتاحة البال ،

تمخر الفضاء فى سيادة السيد الواثق من نفسه وتشرف على آخر خبط للرؤية المجردة وتعود فى سرعة الغازى الكاسح وتصعد لبلوغ الهدف وتهدأ ، ولكنها تنطلق فى سرعة جنونية نحو الهاوية تريد المحق وقبل.. وقبل.. تصفق وتزوغ بعد ان تلطم البحر بأطراف الاجنحة . يريد ان ينادى طيور النورس الطليقة ، يريد مناجاتها ، مشاركتها عبثها وجدها ، وتمتد ذراعاه فيصدم بالبتر .. كسير الجناح ، مهدم الكيان ، تنخره الهوامش وتلطمه الحياة وقد سلبته حبل النجاة من السقوط الى التحت والبقاء مع من تحت ...... ودلو يتسلق هذه الصخرة الشماء ويصرخ فى هذا الفضاء الواسع ، فى الكائنات الحية منها والميتة بأن كل شىء زائل .... طريقه الفناء وهو يتقبل هذا الامر أحب أم كره ، وليست هذه هى علته أو شكواه ولكنه يسأل : ما الذى نطلبه الحياة من تشبثها بكائنات منقوصة .

هناك حيث تحت .. تستقر صخور ناتئة تطل بصلابتها وشراستها، وهى قادرة على تحطيم أى شىء يقع عليها ، انه يود لو يكون من قرابينها ، لنزول آثاره بعد لأى كما تزول آثار الحشرات المائية عندما تبعثرها الامواج الصاخبة لتستقر فى مكان آخر .

الشاطىء هادىء الا من صخب الامواج الذى بدأ يزداد بازدياد سرعة الريح، وطيور النورس والصخور والحشرات وكل الكائنات الحية والميتة ترمقه جهرا وخفية باحداق حمراء وصفراء وسوداء ألوان اختلط بعضها ببعض فعجز عن تبينها احداق من شرر ، أراد ان يسخر منها وأن يهز كتفيه فى غير اكتراث فخانته كتفاه ، انها تفتقر الى شىء يجعلها مسؤولة عن الاكتراث أو عن عدم الاكتراث، بحث عن طيور النورس فاذا بها تنتشر على كامل الشاطىء وقد اضاعت نسقها ، فتبعثرت لا تلوى على شىء . كل شىء الى زوال كل شىء الى زوال ، حتى النظام حتى المشاهد الجميلة ، حتى آيات الرحمة الالهية الى زوال ، وكان لابد أن يتضخم فيه الحقد الاعمى على كل شىء تطاه رجلاه ونقع عليه عيناه ، لقد استحال الى كتلة من الغيظ والارتعاش والاضطراب ، اصبح نشازا فى لحن حزين .

لقد كان التحدى كبيرا ، انه لا يريد التزحزح قيد انملة ، انغرس فى الرمال ، تشبث باليابسة وكأنه اصبح يهاب البحر وأمواجه الصاخبة ولكن بعد جهد ، استطاع دفعه الى الداخل ، ابتلت ثيابه والتصقت بجسده المرتعش وكأنها تلوذ به ، تستعطفه فى تضرع .

ما ان وقع وسط القارب وتحامل على نفسه منتصبا على رجيه حتى شرع في التهام كل ما يدور حوله بتلك النظرات المحدقة الجاحظة . يحتقر كل شيء لان كل شيء تافه ، سراب في سراب في سراب . يضم في لا مبالاة ، يحتضن في ازدراء ، يراقب في نفور ، يداعب بالبلايا والكروب ، يناجي بالصواعق والبروق والرعود ، أراد أن يصرخ وأن يكون لصراخه دوى ... وأى دوى ، لكن رغم حنقه وحقده الاعمى ، كان يعرف أن صوته أحقر من أن تصغى اليه كل هذه الكائنات . أمواج البحر التى ابتدأت تثور ثائرتها وكأنها احست بوجوده غير المرغوب فيه ، لم تكن لتفسح له المجال ليقول كلمته ، هى الضخمة والاقوى وهو الضعيف ولا ضعف بعد ضعفه .

اين انت يا آيات الرحمة ... يا صور الجمال وراحة النفس ... يا طيور النورس وشمس الاصيل ... يا أحلام الفرح وليالى ألف ليله وليله .. أين أنت منى وأين أنا منك أراك في حل منى فاذا كان يريحك عذابى فلتجمعى ما أوتيت من طاقة للعبث بى بين هذه الامواج الثائرة وهذه الرياح النافخه اذا كان هذا يزيد في تسليتك .

ما كان ليقدر على التوغل بعيدا داخل البحر لقوة لطمات الامواج الزاحفة في اتجاه الشاطىء في علو الجبال ، وما كانت هذه الامواج لتعيده الى الشاطىء وقد انحصر قاربه بين الصخور فحالت دونه والشاطىء ولو أنه لا يرغب في ذلك . كان القارب يدور حول ذاته ويهتز كانه سيحلق ، وينزل الى أرضية الموجة وكأنه يهم بالغوص ، وهو بين الاهتزاز والنزول يتأرجح في رقص الشياطين ، ولم لا وقد امتطاه شيطان آدمى فقد احس كل الحس والشعور بأنه كأى كائن في هذا الوجود ، يهدى السعادة وتسلب منه ، ولا بد له ان يتقبل الامر بصدر رحب ولو رزح تحت جبال من البلايا .

انتصب وسط القارب بهامته ليفرض نوعا من الاصرار على كل هذه الكائنات التى تألبت عليه ليظهر كأى كائن كامل ، وصعق بعد لأى بيعلم بان ما يفعله ما كان ليبتغيه ،لقد سلب ولئن كان له نصيب الاسد في ذلك مقومات الكائن الفارض ، واذا حدثته نفسه بامر في لحظة من أحرج اللحظات فذلك لضعف فيه ولبقاء ذرة من حب التشبث باليابسة . ان كل الحيل التى تستعمل لهذا القضاء ، اول ما يراعى فيها قتل تلك البذرة واحباط كل السبل للنجاة حتى اذا ما ابصر النهاية المفزعة لا يقدر على التقهقر وينتهى الامر ، وامام حالة الفزع يشل كل شىء . الموجات المتتالية رغم عظمتها وقوتها ما قدرت الا على

العبث بالقارب وصاحبه وكأنها : تحالفت مع الاقدار لكي ينتهي الف مرة ويتناثر اشلاء وهو منكمش يبصر النهاية قبل النهاية أراد أن يصرخ مرة أخرى لتنطلق أحقاده كل احقاده من عقالها وغضبه ومقته لهذا العالم ، وعند ذلك فقط يمس العالم في الصميم فيعجل بالنهاية ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ، لقد تسرب القارب بين الصخور وأصبح بين رحمتها ، تلطمه الامواج على الصخور وتصفعه باعانة من الموج المتقهقر لتتلقفه الصخور الاخرى . فلا القارب تهشم كليا ولا هو اقتلع منه ، واخذ مكانه في قاع البحر ، وجمع قواه وارتمى في اليم .

حاول التخلص من الكابوس الذي اضاع منه الرؤية المجردة فعجز ؛ وكان السعال الذي لا يعرف كيف امسك به ، يهزه هزا ويدفع باعماقه الى الخارج السعال يرجه يزعزع فيه الكيان وكان لابد ان يلتقط الحقيقة التماطا ، الحقيقة المهزلة حتى الموت . لا خلاص له من نفسه ، وها هو يبلى بعلة ستتشبث بتلابيبه وستعدمه ببطء .

يا للسخرية يا للقضاء العادل ، لا تزال في العمر بقية وسيوضع على مائة التشريح وليس له في الامر خيار ، وابتسم ليحتضن كل بلايا العالم ورزاياه .

الناصر التومي

من وراء الاقنعة

مسرحية : فتحية العروسي

ـ 2 ـ

الفتاة : « فى حيرة » أجيال من العقائد والخرافات والاوهام المتاصلة فى النفوس تأصل الجذور فى التراب « يبدو الاجهاد فى لهجتها » كيف يمكن لنا اقتلاعها ..؟؟ ـ كيف ..؟

الصوت 2 : سيكون ذلك عندما تنعتق أرواحنا من قيود المادة !... ـ سيكون ذلك عندما نتعلم كيف نستخدم الاشياء بدل أن تدعها تستخدمنا .

الفتاة : « حائرة .. ثائرة » لكن متى ستتفجر ينابيع القوى الكامنة فى أعماق نفوسنا ومتى سيرفع هذا النقاب الكثيف عن أعيننا ؟

الصوت 1 : « متهكما » ان من طبيعة الضفادع النقيق ومن طبيعة الحياة الامتثال لقوى لا تدركها الضفادع ولا تحلم بها .

الفتاة : « مغتاظة » آه !! ـ لو كنت نهرا يا مستنقع لما كان فى لغتك هذه الاحرف من البعوض ...!!

الصوت 1 : « لا يزال متهكما » ان البحر ليس ما نراه منه وحسب ، ولا هو حيث نراه ... ـ انه لاكثر بكثير مما نبصر منه وتسمع وانه لاكبر بكثير من أن تحصره خلجان وشطان .

الفتاة : « لا تزال مغتاظة » لكن الذى لا نبصره منه ولا نسمعه أهم فى حياتنا بكثير من الذى نبصره ونسمعه ...

الصوت 2 : على المرء ان يتبطن الشكوى عن صبر لانفاد له ، وايمان بان بعد مرارة الصبر حلاوة الانعتاق !!

راجع الفكر السنة 24 ـ العدد 10 ـ سنة 1979

الفتاة : « تضحك فى سخرية » جمال الحياة لذة البقاء ، غبطة الوجود ... ـ كلمات جميلة رنانة ، « فجأة تتحول اللهجة الى يأس » ولكنها فارغة خداعة .!

الصوت 2 : « بلهجة قوية » كلمات الحق كثيرا ما تكو نمرة والكلمات الحلوة كثيرا ما تكون كاذبة .

الفتاة : « تحاول الضحك فى مرارة » كلمات مبهمة غامضة غموض النفس الانسانية « تزفر فى ضيق » يتعرض بها أهل الارض فيظهرون ايمانهم الفطرى الذى لابد منه للقلب .

الصوت 1 : ان السأم حتى من الاشياء الجميلة ، فى طبيعة الانسان !!

الفتاة : « فى غضب » ولكن كيف نتعامى عن البشاعة التى تحيط بنا والدخان قد سد عنا المنافذ ...!

الصوت 2 : انها لعبة الحياة الخطرة ، حيث تتصارع القوى ... لابد من التغيير ، لابد من الصراع حتى نستطيع تذوق الحلو المرير من شهوة البقاء ...!

الفتاة : « تتكلم بصوت خافت وكأنها تخاطب نفسها » تصحبها موسيقى هادئة تتماشى والصوت . ولكن ...؟ ـ ماعسى أن تكون الحياة بكل ما فيها الا مدة محدودة على ظهر الارض تجعلها أوهام الانسان ومطامعه وحماقته كأنها الابد كله ...!

الصوت 2 : الحياة هى التى لا تريد أن تعرف والمعنى الذى تطير حوله الاقدار .

الفتاة : « تبدو متعبة من الصراع » لكن الحرص جبن ، والجبن ذل ، والذل استعباد ...!

فلماذا لا نكون احرار كما خلقنا وكما خلقت الحرية التى لا قيد لها من رذائل الدنيا ...؟؟

الصوت 2 : انما نتعشق الحياة لا كما هى بل كما نريدها أن تكون وفى ذلك سر تعلقنا بأذيالها ولن ننفك فى حرب معها حتى يكون لنا ما نريد ...!!

الفتاة : « تتسائل فى يأس » ولكن ..؟ ـ هل يبلغ البنيان يوما تمامه اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟؟

الصوت 2 : « ثائرا » ليهدم الهادمون ما شاؤوا فذلك لن يثنى عن البنـاء والذى لا يهدم لا يبنى !

الفتاة : « بصوت يائس » لكن المجتمع لا يعاملنا بما نملك من أنفسنا وانما « ينخفض الصوت » بما نملك من الدنيا ...!

الصوت 1 : « يقهقه ساخرا » فما الانسان الا دابة للحمـل ، وعليـه أن يحمل من معانى المادة التى يعيش فيها !

الفتاة : « فى حيرة » لماذا لا يحارب الانسان كل ما فى نفسه من غـرائـز تنحرف به عن طريق الحق بدل أن يحارب أخيه الانسان ؟

الصوت 2 : لو لم تكن حياتنا حربا دائمة على الجهل ، على الظلم ، على الفقر على الضعف ، لما كانت حرية بأن نحياها .

الفتاة : « غير مقتنعة » أسطورة عاشت لتموت اليوم ... ستارا من الوهم تمزقه الآن أصابع الواقع البشع ، أبراج من الرمال تذروها الرياح ...

الصوت 2 : «محاولا اقناعها» الانسان هو الذى يمشى على صراط من فضائله وعلى نور من ربه ـ فما دامت فضيلته لاتنكره ، وما دام قلبه مطمئنا بالايمان ، فكل ما على الارض هو مادة العزيمة فى نعته ومادة القوة فى روحه ، ومادة الابتسام على شفتيه .

الفتاة : « ثائرة » ولكن .. ـ نحن فى حاجة الى نور نهتدى به فى الحياة « صمت قصير » وليس من نور نهتدى به غير نور الحقيقة ... « ينبعث صوتها يائسا » حقيقة ما فى أنفسنا ، وحقيقة ما فى العالم من حولنا ...!

الصوت 1 : « مضطربا » ولكن أين نهرب من وجهة حقيقتنا ..؟ ـ أين نختبىء من الوباء فى داخلنا ؟؟ ـ أين ..؟؟ ـ أين ؟.. أين ؟؟ « تولول الاصداء بكلمة أين »

الفتاة : « بصوت خافت مجهد » أجل ..! ـ انه رهيب صوت الحق .. « فجاة تتغير اللهجة » ولكن .. ـ ليس على القلوب التى تعشقه

الصوت 2 : ان الزمن نفسه بحكمته وحوادثه . انما يعلمنا كيف نحتمل الصعاب أكثر مما يعلمنا كيف نتقيها ..

الفتاة : « بصوت متعب » ولكن الانسان لا يصرع الطبيعة مرة حتى تصرعه ألف مرة « تزفر فى ضيق ثم تواصل بصوت خافت » فيسقط متعبا أو منتشيا .

الصوت 2 : ان فى الوقوف التقهقر وفى التقهقر الموت والاندثار !!

الفتاة : « تضطرب فجأة » ويحى ..؟؟ ـ أصبحت فريسة لخاطر « تصحب الكلام موسيقى تصويرية تزيدها رعبا » غريب لا يفتأ يساورنى « تصرخ » ـ أين ذهبت عزيمتى ؟؟ أين ذهب صمودى ؟؟ « تحتار فتتسائل » ولكن كيف يمكن احتمال هذا الضجيج ؟؟؟

الصوت 2 : « محاولا بث العزيمة » ان قوة العزيمة والايمان تصنعان الارادة ... ـ الارادة التى تحقق المستحيل ...!!

الفتاة : « بصوت هادىء يائس » ان المادة تولد العقبات ، والعقبات تجعل الماء يزبد ، وتجعل الانسانية تفور ومن هنا المأساة !!

الصوت 1 : « متهكما » ان الانتفاضات كثيرا ما تثير الاشمئزاز لانها تتمخض عن كارثة وثانية لانها تتخذ من المجرد نقطة انطلاق لها دائما ...

الفتاة : « فى غيظ » ليس الظاهر ما يظهر لك منه ولكن بالباطن الذى هو فيه ...

الصوت 2 : ان الجرة تصنع من الخزف ولكن قيمتها ليست فى الخزف بل فى مقدار ما يستوعبه فراغها ...

الفتاة : « بلهجة هادئة » أجل .. ان الحياة تمدنا بكنوز المعرفة حين نستعلى بأنفسنا على الدنىء من الغرائز وننتصر على قوى البشر « تتغير اللهجة هنا الى حدة وغيظ » والتحرر من سيطرة الجسد .

الصوت 1 : « متهكما » ولكنكم تذوبون كالثلج أمام النار ...

الفتاة : « مغتاظة متحدية » لا ... لا .. « ينخفض الصوت دون أن تتغير اللهجة » لن استسلم .. لن أتخاذل .. ولن أذوب أمام النار !!

الصوت 1 : ان خلاص المجتمع رهن المجتمع نفسه

الفتاة : « ثائرة مغتاظة » لكن القناع كاذب لا يتيح لنا أن نكتشف شيئا ... « تتغير اللهجة الى يأس » ... فهو مخدر لمشاعرنا العقيمة ومداركنا وقدرتنا على الاشياء ...!

الصوت 1 : « لا يزال ساخراً » ان المادة طبيعة فى المزاج !!

الفتاة : « متحدية سخريته » انما الانسانية فى القلوب التى لم تهتك عنها رذائل النفس . ولم يعلق بها غبار الارض ، ولم يتغشها ظلام الحياة .

الصوت 1 : ولكن الكمال الانسانى لا يزال بعيدا عنا ، يحاول أن يقتلعنا من أساسنا لنثب اليه فى أقاصى علوه ، ولكن هيهات !!

الفتاة : « ساخرة » ان اليوم الذى يمتلىء فيه الانسان شعورا بحكمته ، هو أقرب الايام الى سرعة انكشاف الرداء « تضحك » عن حمقه المضحك !...

الصوت 2 : من هذه الاخطاء تبرز أحيانا بصائرنا متفتحة كما تنفتح الازهار النابتة فى الاوحال ...

الفتاة : ولكن النبات لا ينبث الا حيث يجد عناصر غذائه ...

الصوت 2 : الحكيم الذى يعرف الحياة كما يمكن أن تكون ، ويعرف أن كل حى من الناس هو حى على شروط لواهب الحياة ثم للحياة نفسها ..

الفتاة : « فى شبه دوامة تتكلم بصوت خافت . تصحبها موسيقى تصويرية تصحب الكلام ولكن لا تطغى عليه . بل تكون متماشية مع الموضوع واللهجة » العالم كالبحر من السراب يموج به أديم الارض بما رحبت ثم لا تملك أمواجه ملعقة ، والحقيقة فى كل شىء لا تزال تفر من تحليل الى تركيب « تضحك فى مرارة » لان شعور أهل الزمن بالزمن لا يحتمل المعنى الخالد .

الصوت 1 : ان الشاطىء لا يعرف تحت السيل اذا طم عليه ، فلا أحد يدرى ما هو حد الكفاية فى رغبات هذا الانسان وأهوائه

الفتاة : « بلهجة تشوبها السخرية » لقد صارت هذه الكفاية وما ينطوى تحتها من ألفاظ القناعة والرضا وما اليها ــ ألفاظا خيالية يساير ظلها ظل الانسان ، فلا حد لها ما دام هو لا يثبت لنفسه حدا .

الصوت 1 : انها الحياة ..! ــ انه الحظ !!

الفتاة : « بصوت هادىء » لكن الحظ توفيق ، والتوفيق أن لا يكون لك الا ما تصلح له ... فأنت بذلك مطمئن ، ومن ثمرة الاطمئنان الرضا بما أنت فيه ...

الصوت 1 : انما هى الطبيعة قد جعلت فى أفواهنا هاته الكلمة لنتغنى بها تحت الاحمال الثقيلة من مصائب الدنيا وأطماع النفس !...

الفتاة : « مغتاظة » لكن الامل بغير عمل سراب والاتكال على الحظ والصدفة ومعونة الغير عبث !!

الصوت 2 : ان القدرة مغرية ، ما ملكها أحد حتى بادر الى استخدامها فيما ينبغي وما لا ينبغي ...

الفتاة : « بصوت خافت » ولكنهم يقتلون ذوات أنفسهم المقنعة كالفراشات وقد تجنح الى أعلى مخلفة غشاءها « ينخفض صوتها أكثر » وقد انعدمت فيها الحياة ... !!

الصوت 2 : اننا مطالبون بأن نخط لانفسنا في هذا المحيط الذى لا نهاية له أوسع دائرة يمتد اليها شعورنا وادراكنا .

الفتاة : « ثائرة بصوت مرتفع » ولكن من أين لنا ذلك ودود المطامع لا يموت ؟ من أين لنا ذلك ونار الشهوات لا تطفأ ؟؟

الصوت 2 : هنالك قوى نحيا بها ونجهل كنهها ... ولو أدركنا لانتصرنا ...

الفتاة : « في مرارة » لكن يزعجنا أن نذوب ذوبان الملح في الماء .. أن نفقد ذاتيتنا .. فرديتنا ـ شخصيتنا .

الصوت 2 : ان الذوبان لا يعني فقدان الكيان ، بل يعني امتداد الكيان ، يضيع الملح في الماء ويبقى الملح والماء .

الفتاة : « في يأس » لكننا لا نعرف كيف نستمتع بالنور « ينخفض الصوت قليلا » دون أن يعمينا النور ، ولا نعرف كيف ننتفع بالحرارة ، بدون أن تحرقنا الحرارة ...

الصوت 2 : يجب أن يكون هناك المثل الاعلى الذى يعظم بنا ونعظم به .

الفتاة : « ثائرة » الواجب .. الواجب ...!! « ينخفض الصوت ثم ينبعث ساخرا اثر زفرة تصعدها » الواجب كلمة مبهمة يعسر تحديدها في أحوال كثيرة

الصوت 2 : « مهدئا » ان الحياة عميقة لا يمكننا تحديدها .. ـ فهى خداع وغرور . زيغ وخطأ ، عمل وعبث ، فرح وألم .. الحكيم من أدرك ماهيتها وانعتق من ماديتها ... !؟

الفتاة : « في مرارة » ولكن ضجيج الشهوات يطمس الكلمة الازلية التى فيها كل قوة الصدق « ينخفض صوتها » وكل صراحة الحقيقة ...

الصوت 1 : « ساخرا » يظن الانسان أنه لا يغالط الا غيره ! وهو فى الحقيقة لنفسه أول المغالطين .

الفتاة : « ثائرة .. متحدية .. مغتاظة » تبالكم ولمذاهبكم المادية التى تقودكم الى الوراء .. الى العبودية التى تخلصنا منها بالتدريج .. « يرتفع الصوت » .. وحررنا أنفسنا ...!

الصوت 2 : الانسان يتحرق الى ذروة انسانيته جاهدا الى الوحدة والفرار من وراء تمزق الذات وتوترها الدائم وجهادها المتصل .

الفتاة : « ثائرة » الانسان يجب أن يبقى انسانا .. يجب أن يحتفظ دائما بجوهر الانسان فيه « ينخفض الصوت وينبعث ساخرا » ولا ينقلب مخلوقا آخر !...

الصوت 1 : ان السماء الحقيقية تقصر عنها ارادة الانسان !...

الفتاة : « ثائرة .. مغتاظة » لكن الحياة ليست فى الانطلاق والعبث ... انما هى فى التركز والتكريس لخدمة غرض شريف .

الصوت 2 : الحياة امتداد لانتصار الممكن على صعوبة المستحيل ...

الفتاة : « وكأنها تخاطب نفسها » الحياة فى وجودية الكائن وحرية حركته وانطلاق أحاسيسه « تصمت قليلا ثم تواصل » الحياة هى الحركة .. الحياة هى النبض .. الحياة هى الاحساس !!

الصوت 2 : ان روح النعيم الارضى فى ذراعى الغريق يجاهد لينجو ، وروح النعيم الازلى فى ذراعى الحى الذى يجاهد ليفوز !...

الفتاة : « بلهجة يائسة » لكن !... — على قدر الطموح تكون مرارة الفشل ...

الصوت 2 : الحياة وتر ساحر لا تعطى اللحن الجميل لغير العازف الماهر .

الفتاة : « فى مرارة يائسة » ان صدر المجتمع كصدر المحيط العميق ذى الماء الكثيف ، يدفع الى سطحه كل جسم غريب ، ولا ينفذ الى أعماقه الا شىء ذو وزن بعد زمن وجهد ...!!

الصوت 2 : ان حرصنا بخلاصنا يعلقنا بالحياة ...

الفتاة : « فى مرارة » لكن الغاية فانية كاسمها .

الصوت 2 : لكن حين يعجز العقل ، يوحى لنا القلب والضمير بالغاية من وجودنا ...

الفتاة : « متهكمة » ـ الضمير !... انه أحق من أن يدخل في تركيبه التمويه والتزويق .. « بلهجة جادة حادة » انه حقية القلب الانساني ، بما فطر عليه من خير وشر ...

الصوت 1 : لابد أن نسلم أن هذا الكون المادى الذى يخضع لقيود الزمان والمكان ليس الا جزءا يسيرا من الحقيقة الكبرى التى ينطوى عليها هذا الوجود

الفتاة : « مغتاظة » انه الاحساس المجرد بقصورنا نحن الآدميين عن بلوغ الكمال ، وسعينا المتصل ، متعثرين فى أذيال الغرائز ...

الصوت 1 : « متهكما » انه دوامة منغلقة تحرق نفسها بنفسها .

الفتاة : « غير مكترثة » ان خلاصنا فى السيطرة على أنفسنا لا فى مجرد الاقتدار على محيطنا .

الصوت 1 : لكن حواسنا لا تستطيع ان ترى الا الماديات الكثيفة المحيطة بها

الفتاة : « غير مقتنعة » لو حاول الانسان التغلب على جاذبية الارض التى فى أعماق نفسه لتبخرت تلك الرؤيا من أمامه بتاتا

الصوت 1 : « متهكما » قد يكون أدق خيط من خيوط آمالنا هو أغلظ حبل من حبال أوهامنا ...

الفتاة : « شبه حالمة » لذلك نلجأ الى الاحلام ... تنتزعنا من حياة العزلة وتصلنا بالاعماق النفسية التى تسخر من الحياة السطحية ..

الصوت 2 : يجب أن نظل فى عالم الوعى والشعور ، لنتم الواجب الذى اضطلعنا به فى هذه الحياة بوصفنا مخلوقات واعية وأفرادا مسؤولين .

الفتاة : « معارضة فى حدة » لكن الاحلام حقيقة بها نقر أننا من عالم الخلود ، وأن فينا مالا يمكن وصفه من قوى تدلنا على حقيقة نفوسنا ، وتدعونا الى السمو بها .

الصوت 1 : لكن الجسم لا يتذوق لذة الراحة الا بالرجوع الى أحضان أمه الارض ، فهو لا يملك جناحين يسمو بهما سمو الروح .

الفتاة : « شبه حالمة » لابد ان يستيقظ المرء من أحلام كثيرة جميلة ، فيا ليته يستطيع أن يبقى زمنا طويلا فى الاحلام ... « تتغير اللهجة ـ تضحك فى مرارة ثم تواصل » ، حتى لا يصطدم بصخرة الواقع ...

الصوت 2 : ان فى هذه الاعماق النفسية تبدو صلتنا المتينة بمعنى الوجود من معان قيمة

الفتاة : « فى حدة » الحقيقة ستبرز عارية واضحة تفصلها عن المادة الكامنة فى الاساس . « تتغير اللهجة » ثغرة واسعة واضحة .

الصوت 1 : لكن المادة جزء من الحياة ...!

الفتاة : « معارضة » ولكنها تزدهر وتحلو حيث تقل أو تنعدم .

الصوت 2 : ان المجتمع هو كالداء المتفرع فى خلايا الجسد . والحياة هى الجسد المصاب وعلى المرء درس جميع الجراح كما يفعل الطبيب أثناء للتشريح .

الفتاة : « معارضة فى اغتياظ » لكن الاعين لا ترى كل الاحيان ، فالقناع سميك يخفى كل شىء ، « تهز رأسها فى يأس » وبذلك تعيش الحقيقة فى الاعماق كالاسماك العمياء فى أغوار المحيطات !...

الصوت 2 : ان الحقيقة لا تظهر ولا تختفى ولا تنتهى .. ومع ذلك فهى موجودة !...

الفتاة : « ثائرة فى حدة » لكن المادة تصنع أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن الحقيقة ...!!

الصوت 1 : ان من أراد الحصاد ولم يزرع لم يحصد .

الفتاة : « تقاطعه » ومن طلب الشفاء ولم يتداو لم يشف . (لم يشف) « تلفظها بصوت خافت » .

الصوت 1 : انما المجتمع كالارض التى تقتبل القمح فى جوفها ولكن بعد أن ينبت تخنقه بأشواكها وتلك هى الحياة .

الفتاة : « تثور » لكن الانسان هو الذى يخرج من نطاق الطبيعة المادى النفعى الضيق بحدود زمانه ومكانه وبقيود تقاليده ليدخل معترك الحياة بالمحبة البالغة نكران الذات الفردية ...!!

الصوت 2 : ان من لا ينظر بعين الايمان لا يرى فى هذا العالم سوى الضباب والدخان ...

الفتاة : «بلهجة رصينة» الايمان حالة خاصة تنبت فى شعور الانسان وضميره وتنمو فى دائرة خبرته الشخصية .

الصوت 2 : ان الاخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال فى حياة الفرد والمجتمع ، ـ ليس فى الوجود شيء لا يأخذ ولا يعطى ...

الفتاة : « ثائرة متحدية » بانكار الذات يتم كل اثبات ، وكل ما ننكره فى ذواتنا « ينخفض صوتها فى اغتياظ » ستدب فيه الحياة ...!!

الصوت 1 : وكل ما تزعم أنك تحميه فى ذاته يتناقض

الفتاة : « ساخرة معارضة » لكن القناع ينفى الشخصية وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء ، ولا تماسك ولا اتصال .

الصوت 2 : ان فضل الانسان على غيره من المخلوقات أنه ارتفع الى العناية بأشياء معنوية بعيدة ء نتفاهاته الارضية ...

الفتاة : « مغتاظة ، ساخرة فى مرارة » ولكن المطامع تمد أيديها الفانية الى هذا الجوهر السامى لتسخره فى شؤون الارض !!

الصوت 2 : لكن على الشمس أن تهدى المبحرين وليس على الشمس أن تبصر

الفتاة : « لا تزال فى اغتياظ » كلمة صغيرة ولكنها تنطوى على أسرار كثيرة كتبت على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها ، لتهتدى الى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية ...!

الصوت 1 : اننا لا نستطيع أن نحصل على الاستقرار والاتزان فى حياتنا ما لم يكن لدينا هدف دائم نصبو الى تحقيقه .

الفتاة : « بصوت متعب » لا خطيئة أكبر من الشهوة ولا تعاشة اكبر من حب الاقتناء « تزفز ثم تواصل كلامها بنفس اللهجة » لذلك كانت السعادة القصوى فى القناعة .. والرضا ...!!

الصوت 1 : لكن الانسان ليس له غير ربيع واحد فى الحياة

الفتاة : « فى يأس » ولكن الربيع الجدير بالعبادة قد فقد عطره

الصوت 1 : « ساخرا » ان البحر عندما يفقد شكله بهديره الصاخب يتركه الناس .

الفتاة : « فى مرارة » أجل ...! « تصمت قليلا ثم تواصل » وحتى الامواج الصاخبة لن تبنى شيئا على الماء « ينخفض صوتها قليلا » انها تنساب تحت كل وزن ...

الصوت 2 : ان تعاسة كل انسان تأتيه من أنه انسان ينظر دائما ويخضع لذاته .

الفتاة : « فى احتقار » لكن المادة تكون عقيمة اذا اعتبرت كهدف فى حد ذاتها وتكون خطيرة اذا خضعت للاحساسات الانانية وللفائدة الفردية .

الصوت 1 : « مستسلما » ان حيرتنا وليدة التمزق والتمزق وليد الحرمان .

الفتاة : « تزفر فى غيظ » لكن الحرمان ناتج عن واقعنا الدامى الذى لا يريد الانسان فهمه واصلاح اعوجاجه ..

الصوت 1 : من السهل أن نفكر فى المستقبل ونخطط له ... ــ ولكن من العسير المرور بشعاب الحياة ومنعرجاتها الضيقة !!

الفتاة : « تتكلم بلهجة متفائلة » كنا فى شبه اغماء لا شعور لنا بالذات ... لا نرى أنفسنا ، ولكن نرى الاشباح من حولنا !... لا نحس بوجودنا ... ولكن نحس بوجودهم !!

« تضحك ثم تواصل » لكن فى قلب كل شتاء ربيع يختلج ووراء نقاب كل ليل ... صبح يبتسم ...!!

الصوت 1 : « متهكما » أنى للطبيعة الخالدة ان تعبق بالاريج ما لم يتأرجح النسيم فوق العشب فى قناعه العطرى ..

الفتاة : « ما تزال متفائلة » لكن ستظل الشمس مشرقة فى قلوبنا ما بقى للشمس شعاع ولا بد من عودة الى الاهتداء مهما طوحت بالاقنعة المنافع « ينخفض صوتها » وجمحت بهم الاهواء !!...

فتحية العروسى

التعريف ببدر الدين القرافي

عرض ونقد : أحمد الشتيوي

غايتنا في هذا البحث أن نعرف القراء الكرام بفقيه بقي نكرة الى الآن . وتجدر الاشارة الى أن هذا التعريف قد قدمنا به تحقيقنا لكتاب من كتب القرافي هو « توشيح الديباج وحلية الابتهاج » وهو « ذيل طبقات المالكية » للحصول على شهادة الكفاءة في البحث العلمي بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس سنة 1976 . وقد نقحنا بعض الآراء ووضحناها . فمن هو القرافي ؟ وما هي آثاره ؟

نسبته :

هو محمد بن يحيى بن عمر بن أحمد (1) بن يونس بن عبد الرحمان (2) الملقب ببدر الدين القرافي ، المصري المالكي القاضي بالباب المصري ، رئيس العلماء في عصره وشيخ المالكية . ينحدر من أسرة علم وفقه . فجد أم أبيه هو الامام محمد بن أحمد بن عمر بن شرف المعروف هو الآخر بالقرافي (3) العلامة شمس الدين ولد في العشر الاخير من رمضان سنة احدى وثمانمائة (جوان 1399 م) بدار السلامي بالقاهرة وتوفي ليلة الاثنين رابع عشر ذي الحجة سنة سبع وستين وثمانمائة (الثلاثاء 30 أوت 1463 م) .

---

(1) « أحمد » ذكره التنبكتي في نيل ص 342 ولم تذكره بقية المراجع .

(2) عبد الرحمان ذكره البغدادي في هدية العارفين ج 2 ص 263 ولم تذكره بقية المراجع .

(3) توشيح الديباج ورقة 48 و ...

أما جده لأمه فهو القاضي المعتمد الشهير بمصر ، المعول عليه فى المهمات ، محمد بن عبد الكريم بن أحمد الدميرى (4) برع فى الفقه والقضاء ، خطب بالغورية ودرس بالطولونى الفقه والحديث وبالمنصورية والاشرفية والشيخونية (5) وغيرها الفقه توفى فى ثانى عشر ربيع الاول سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة (9 أوت 1536 م) وللدميرى تأثير كبير على بدر الدين كما سنرى .

أما والده يحيى (6) فهو علم من اعلام مصر ، ولد بها سنة ست وتسعمائة (1500 م) فحفظ القرآن والشاطبية وأصلى ابن الحاجب ومختصر خليل وأصلى ابن السبكى والفية ابن مالك . أخذ عن شيوخ عصره وخاصة شمس الدين ونصر الدين اللقانيين ، تولى القضاء وأقرأ مختصر خليل قراءة جيدة مع أبحاث لطيفة ، توفى يوم الجمعة سادس عشر صفر سنة ست وأربعين وتسعمائة (5 سبتمبر 1533 م) .

حياته :

ولد القرافى بحى القرافة بالقاهرة سنة 939 هـ. وقد ذكر سنة ميلاده وسبب تسميته فى التوشيح (7) قال : « جدى لأمى هو الذى لقبنى بدر الدين وذلك أنى ولدت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وتسعمائة (الثلاثاء 22 افريل 1533م) كما وجدته بخط والدى. وبلغنى من طريق أن السنة إنما هى سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة (الجمعة 3 ماى 1532 م) . وتكلم الناس فى تلك الليلة انها ليلة القدر . فقال لا ألقبه الا ببدر الدين » .

هذه الرواية تعتبر المصدر الوحيد لسنة ميلاده وقد اعتبر المؤرخون سنة 939 هـ. السنة الصحيحة ، والقرافى نفسه ، فى النسخة التى بين أيدينا ، بقى مترددا ، الا أنه يميل الى السنة التى ذكرنا ، فقد كتب بعد سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة بالهامش « وذكر سنة تسع سبق قلم » ثم شطب عليها .

---

(4) انظر توشيح الديباج ورقة 56 و ـ ونيل ص 336 .

(5) مدارس فى القاهرة .

(6) نيل ص 359 .

(7) التوشيح ورقة 56 و...

أما وفاته فكانت « نهار الخميس ثاني عشر شهر رمضان سنة ثمان بعد الالف (الاثنين 27 مارس 1600 م) وصلى عليه بجامع الازهر ودفن بتربته التي أنشأها مع الضريح بجوار القبة المعلقة » (8) . وقد خالف التنبكتي هذه الرواية فذكر عام تسعة وألف (9) . ونحن نشك في هذه الرواية اذ التنبكتي نفسه يضيف بعد ذلك « على ما بلغنا » .

تعلمه وعلمه :

رأينا أن القرافي نشأ في وسط علم وفقه . ولذلك فأول من اهتم به وبتعليمه هو والده شمس الدين فدرس عليه مختصر خليل في الفقه ، وكنا رأينا أن الوالد قد ابرع في تدريس هذا المختصر ، وأخذ بدر الدين أيضا هذا الكتاب عن الشيخ زين بن أحمد الجيزي الذي عده « حسنة من حسنات الدهر » (10) وعن الشيخ الفقيه القدوة عبد الرحمان ابن علي الاجهوري (11) وقد داوم هذ الشيخ على اقرائه بحيث أنه أعان على كشف غوامضه ، فصار طلبة مصر ومدرسوها كلهم من طلبته ويقول فيه القرافي أيضا : انه « كان أعرف من رأينا بالفقه » ومختصر خليل هذا هو كتاب في فروع الفقه المالكي وقعت عليه عدة شروح ، وافتتن به الناس وولعوا به ، ودرسه كل شيوخ ذلك العصر . قال في شأنه القرافي : « ولقد عم النفع بهذا المختصر وقد كتبته بخطي وقرأته واتخذته وظيفة عمري ... وقد مدحته ... حال وضع هذا التأليف فقلت :

رب قد أوليت فضلا وعطاء بالجزيل
لامام المعنى صاحب الفضل الجليل
تابع المولى المعلى مالك الحبر النبيل
بكتاب رق وضعا خطه مشفى العليل ... (12)

---

(8) خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، تأليف محمد بن فضل الله المحبي ـ مصر ـ المطبعة الوهابية 1284 هـ ، أربعة أجزاء ، انظر ج 4 ص 258 ـ 262 .

(9) نيل ص 342 .

(10) التوشيح ورقة 22 ظ و .. ـ وترجمة 78 من تحقيقنا .

(11) التوشيح ورقة 27 و .. ـ وترجمة 102 من تحقيقنا .

(12) التوشيح ورقة 21 و .. ـ وترجمة 75 من تحقيقنا .

وفي هذا السياق نلاحظ أن ترجمة خليل هي أطول الترجمات في التوشيح .

ومن شيوخ القرافي أيضا محمد بن محمد محب الدين بن أحمد الفيشي الذي قال فيه عند التعريف به « شيخنا علم المحدثين ، قرأت عليه أول سيرة شيخه الامام ختام المحدثين محمد الشامي الشافعي المسمى : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد » (13) .

وأخذ أيضا عن عبد الرحمان بن محمد بن احمد المغربي الشهير بالتاجوري قال في ترجمته : « شيخنا ... حضرت درسه في الموطأ والتهذيب والرسالة » (14) .

وروى بدر الدين الحديث عن جماعة أجلهم الولي الصالح جمال الدين يوسف ابن الشيخ زكرياء ، والعلامة خاتمة المحدثين النجم الغيطي ، والولي الصالح أبو عبد الله بن أبي الصفا ابن الاستاذ محمد البكري عرف الحنفي ... وقائمة الشيوخ الذين أخذ عنهم القرافي طويلة ، ذكرهم في فهرسته الذي ذكره المحبي (15) . وقد ذكر الكتاني (16) البعض من أولئك الشيوخ .

خصائص تعليمه :

يعتبر بدر الدين القرافي نموذجا لمثقفي عصره . والثقافة التي لقنها هي ثقافة عصور انحطاط المسلمين التي تظهر بوادرها في القرن الثاني عشر . وما يمكن الاشارة اليه هو أن هذا التعليم الذي تلقاه صاحب التوشيح انما هو تعليم تقليدي ينحصر خصوصا في العلوم الدينية فما هي هذه العلوم ؟

1 ـ **الفقه** : وهو أهم علم يحرص عليه مثقف تلك العصور وقد رأينا فيما تقدم أن القرافي قد أخذه عن والده ثم عن عبد الرحمان الاجهوري . وأهم كتاب شغل الناس في عصور الانحطاط هو كتاب : المختصر لخليل بن

---

(13) انظر ترجمته في نيل ص 340 .
(14) التوشيح ورقة 28 و .. ـ وترجمة 108 من تحقيقنا .
(15) انظر تعليق 8 .
(16) فهرس الفهارس ج 1 ص 153 .

إسحاق (١٧) . وقد كثرت شروح هذا المختصر كثرة تدعو الى التساؤل . ولا يسمح المجال الآن الى الحديث عن هذا الموضوع .

٢ ـ **الحديث** : وهو العلم الثانى الذى يحرص عليه طالب العلم وتشد الرحال فى طلبه . وقد أخذه بدر الدين عن عبد الرحمان المغربى الشهير بالتاجورى (١٨) . ومما درس عليه كتاب الموطأ ... وروى القرافى الحديث أيضا عن جماعة من الشيوخ (١٩) وهذا يؤكد على عنايته ـ كما اعتنى ابناء العصر ـ بهذا العلم .

وبجانب هذين العلمين لا بد من تعلم شىء من علوم اللغة والادب حتى يستطيع المتعلم توسيع ثقافته ومتابعة دراسته . الا أن الزاد الثقافى الذى يحصل للمتعلم لا يخرج عن نطاق صيغة مألوفة أقرها عرف العلماء والمتعلمين لا يقع تطويرها الا فى الظاهر فلقد تكثر الكتب التى يطلع عليها طالب العلم الا أنها لا تخرج عن الشروح والمختصرات والذيول ... أما المادة فهى هى والثقافة ثقافة نمطية .

اشتغاله بالقضاء :

إن العلوم التى يتحصل عليها المسلم فى مدرسة من المدارس المنتشرة فى البلاد الاسلامية تعد فى العادة القضاة والاداريين ورجال الحكم والسلطة والاعوان . ولعل القرافى يمثل عصره فى هذا الميدان فى مصر . فقد اشتهر باشتغاله بالقضاء فقد وصفه التنبكتى بالقاضى بدر الدين أحد شيوخ العصر كان مشارا اليه بالعلم والصلاح (٢٠) . وأكد المحبى على هذه الناحية فقال عنه بدر الدين « القاضى بالباب المصرى ، رئيس العلماء فى عصره وشيخ المالكية » (٢١) ثم أورد رواية ذكرها عبد الكريم المنشى فقال : « أبو الاشراف بدر الدين القرافى ... نفذ للشريعة الطاهرة بالقاهرة احكاما ، وتقلد القضاء بها نحو الخمسين عاما » واذن يتضح لنا أن القرافى قد اشتغل بالقضاء وهو

---

(١٧) التوشيح ورقة ١٩ و . . ـ وترجمة 75 من تحقيقنا .
(١٨) التوشيح ورقة 28 و . . ـ وترجمة ١٠٨ من تحقيقنا .
(١٩) انظر تعليق 8 .
(٢١) انظر تعليق 8 .
(٢٠) نيل 342 .

صغير فى سن السابعة عشر وهذا دليل على نبوغه واستعداده ولا يستبعد أن يكون ذلك كذلك اذ ينحدر من عائلة علم وقضاء .

أهمية خطة القضاء فى مصر وفى العالم الاسلامى :

لا يمكن أن نتوسع فى هذا الموضوع فى هذه المناسبة انما نشير بسرعة الى أن القضاء كان أهم المناصب التى يطمح اليها العالم فى ذلك العصر . ولا يعنى ذلك أنها قاعدة عامة بل كثيرا ما نجد العلماء يرفضون هذه الوظيفة مباشرة أو بطرق غير مباشرة فيحتالون للتخلص منها . فقد تولى ابن عرفة التونسى مثلا إمامة جامع الزيتونة والخطابة والافتاء وبقي فى هذه الخطط الى وفاته ... الا أنه لم يتول القضاء ولم تكن له رغبة فيه وكان أكثر اشتغاله بالتدريس والتأليف (22) ويمكن أن نفسر هذا بأمرين :

أولا : مهنة التدريس مهنة مرغوب فيها بل هى فرض على المسلم خاصة فى عصور الانحطاط أى عندما خيف على الاسلام من المد المسيحى الذى بدأ يتحدى كيان الامة الاسلامية . فدور العلماء فى ذلك العصر انحصر أو كاد فى حماية الاسلام .

ثانيا : ان وظيفة القضاء اصبحت متصلة اتصالا وثيقا بالسياسة وتقلباتها خاصة اذا اضفنا الى ذلك جهل رجال السياسة لامور الدين وتحاملهم على القاضى اذا أظهر النجابة والعدل . ولا ننسى أن بعض حكام البلاد العربية الاسلامية كانوا من غير العرب . مثل الموالى فى مصر .

ويبدو أنه نشأت ـ نتيجة هذا الوضع ـ عائلات قضائية فلم تعد مسألة تولى منصب القضاء تشغل رجال السياسة . فتولى بدر الدين القرافى هذه الوظيفة وهو صغير السن ، وانتصاب أبيه فيها يؤكدان لنا هذا الرأى .

ومهما يكن من أمر فان القضاء كان ـ فى مصر وفى غيرها من البلاد ، العلاقة الوحيدة بين السلطة والرعية ، فهو الواسطة بين الملوك والسلاطين

---

(22) انظر رسالتين فى المنطق (الجمل للخوينى والمختصر فى المنطق لابن عرفة) تحقيق وتقديم الاستاذ سعد غراب ـ نشر الجامعة التونسية ص : 44 .

الذين اترفوا فى قصورهم وبين العامة التى انهكتها الاوبئة والمجاعات فعم بينها اليأس والخوف ، وكان دور القاضى يتمثل فى المحافظة على هذا التوازن الهش . فهل يمكن أن نتساءل عن علاقة بدر الدين القرافى بأهل عصره ؟

إن علاقة القرافى بمعاصريه تبدو ضعيفة اذا اهملنا وظيفة القضاء التى اداها على أحسن ما يكون . وهو بالتالى لا يختلف عن علماء عصره من هذه الناحية . فالصلة بين العلماء والعامة لم تزدها عصور الانحطاط الا ضعفا ووهنا . الا أن القرافى كان ممثل عصره بلا ريب فى باب معالجة بعض المسائل الفقهية فكان يجيب عن بعض هذه المسائل التى ترد عليه لحلها من ذلك رسالة أجاب فيها عن سؤال رفع اليه فى « أن من وقف عليه شىء يجوز له أن يسقط حقه فيه لشخص آخر فى مقابلة دراهم يأخذها منه أم لا » ومن ذلك أيضا اجابته عن مسألة « بيع الوظيفة هل يصح أم لا ؟ » الى غير ذلك من القضايا التى كانت تعترضه فى مهنته فيجيب ويوضح ويشرح ... لكن نأسف أسفا كبيرا فى أن هذه المسائل لم تصلنا جميعها . ومن هذه الاشارة السريعة نلاحظ أن القرافى لم يكن بعيدا تمام البعد عن القضايا التى كانت تثار فى عصره فيشارك برأيه وفكره ولا يتوانى فى ذلك . وسنلاحظ هذا الامر من خلال ما وصلنا عنه من آثار .

آثـــاره :

قلنا فى ما تقدم : إن القرافى يمثل عصره من الناحية الفكرية والثقافية ويبدو لنا أن ما وصلنا عنه من كتابات يدل على ذلك فماذا وصلنا عنه .

1 ـ الشعـــر :

لم يصلنا من بدر الدين ديوان ولا مجموعة شعرية ، لكن وصلتنا بعض المقطوعات التى حفظها لنا بعض المترجمين له خاصة ما ذكره المحبى . وقد وقعنا أيضا على بعض المقطوعات فى التوشيح .

والمعنى العام الذى تحوم حوله هذه الاشعار هى المديح ، وهو مديح من نوع خاص هو مديح العالم للعلم والعلماء ... فكلما وجد القرافى فرصة للاعتراف بفضل عالم أو بفضل كتاب فانه لا يتخلف عن ذلك . فقد قال مثلا فى مدح « بهرام » وشرحه على مختصر خليل (23) (من الخفيف) :

إن قاضي القضاة بهرام أضحى	مجده ظاهرا بديع البيان
إن تسل عن ظهوره فقلت: حزما (كذا)	بخلوص وصدق عزم وشان
قد أتى بالعجيب في وضع شرح	لاختصار لشيخه ذي المعاني
لخليل يدعى فأظهر سرا	من خبايا كتابه للمعاني
فلذا كان شرحه لا يضاهي	وعليه المدار في كل آن
فترى المتن مبرزا سر فقه	واقتفى الشرح ذاك بالبرهان
قد أحاطا بمذهب مالكي	لهما انقاد كل ذي عرفان
رحمة الله ذي الجلال عليه	وعلى شيخه مدى الأزمان
ما دعا مخلص ودوام ذكرا (كذا)	زاكيا بالحديث والفرقان
مع صلاة تخص أعلى مقام	فوق بهرام بل على كيوان

وعاد القرافي ثانية الى مدح خليل ومختصره بمناسبة الترجمة له فقال (24) : (الرمل)

رب قد أوليت فضلا	وعطاء بالجزيل
لامام المعى	صاحب الفضل الجليل
تابع المولى المعلى	مالك الحبر النبيل
بكتاب رق وضعا	خطه مشفي العليل
فاق للحاوي اختصارا	قائلا ليس مثيلي
قل ألفاظا ولكن	جمعه مشفي الغليل
قد دعا مولاه فيه	نفع ساغ في القليل
فاستجاب الله منه	وحباه بالجميل
فبذلت الوسع فيه	فوفى فضل الجليل
واكتسبت النفع منه	وهو للخير دليلي
وكذا كان دعائي	في صباح ومقيل
رب متعني دواما	بصديق وخليل

ومن الاشعار التي رواها المحبي (25) ما كتبه القرافي الى العلامة سرى الدين بن الصائغ رئيس الاطباء بمصر وقد دفع عنه دينارا لآخر فأرسله ظانا منه أن يقبله فقال (من البسيط) :

---

(23) التوشيح ورقة 16 و .. ـ وترجمة 68 من تحقيقنا .

(24) انظر تعليق 17 .

ماذا جنيت على القاضى بمنقصة مضمونها الشح فى أخذى لدينار

فأجاب السرى بقوله (من البسيط) :

يا بدر تم بلا نقص واقتار وقاضيا (كذا) في البريا حكمه سار
لقد صرفت عن القاضى تصرفه فكيف تبذل دينارا بدينار
حاشاك تنسب الا للوفا ولذا جرت بحارك بالنعمى على الجار

وهذا النوع من الاعتذار بالشعر معروف متداول بين العلماء والقضاة وهو نوع من المدح الرفيع الذى يعترف بفضل الرجال وشأنهم فى اقامة الحق ونشر العدل . وهو بذلك شعر جاد ، لا إسفاف فيه ولا ابتذال وكل المقطوعات التى عثرنا عليها للقرافى هى من هذا النوع .

أما الاسلوب فعلمى جاف ، لا نجد طلاوة الشعر العاطفى انما فيه صنعة وتكلف . فهو شعر منظوم يظهر فيه عناء الشاعر ليجد التفعيلة فكثيرا ما يقع فى أخطاء . وقد انتبه الخفاجى (26) معاصر القرافى الى هذه الناحية فقال : « وله شعر العلماء ونثر طار مع العنقاء تأنق فيه وتصلف ولا عجب للبدر أن يتكلف كقوله (من البسيط) :

منك البداءة بالاحسان حاصلة
ملكتنى الرق فضلا منك لى سارى

ألهمتنى بعده عتقا لتكرمنى
فاختم بخير به عتقى من النار

وهناك سبب ثان فى ضعف هذا الشعر هو ضعف الثقافة التى أصبح عليها الشعراء فى هذه الفترة من انحطاط العرب المسلمين فقد أصبح الشعر غرضا من أغراض الصوفية اختصوا به فأبدعوا أما سواهم من الشعراء لم يكونوا — بصفة عامة — إلا مقلدين مجترين لمعان قد فقدت رونقها الاسلوبى وجمالها المعنوى .

---

(25) انظر تعليق 8 .
(26) انظر ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا — المطبعة الوهابية 1243 هـ القاهرة ص 202 .

2 ـ النشـــر :

رأينا أن صاحبنا قد تقلد وظيفة القضاء وهو صغير ، وكان اثنـاء القيـام بوظيفته نابه الذكر مشهورا ، مشارا اليه ، وهذا الانشغال بالقضاء لم يمنعه من الاهتمام بالتأليف والكتابة . ذكر معاصره وجاره عبد الكريم المنشى (27) أن « ما جمعه من الكتب يعجز الحساب احصاؤه وتعداده ... وبعد أن غربت شمسه وواراه رمسه فرقتها يد الدهر أيدى سبأ وبددتها كأوراق الـورد إذ نثرتها الصبا ... »

هذا العدد الضخم من الكتب لم يصلنا الا أقله بل أقل من القليل . ولسنا ندرى ما هو سبب ضياع هذه الكتب . ومهما يكن من أمر فان مصيرها هـو مصير جل التراث العربى الاسلامى من إتلاف وضياع واهمال . والقليل الذى وصلنا من آثار بدر الدين ما زال مخطوطا لم ير النور بعد ، على حد علمنـا ، وبالتالى فـان صاحبهـا مـا زال نكـرة حتى أن هنـاك فى خلط بينـه وبين شهاب الدين القرافى صاحب « أنواع البروق فى انواء الفروق » وهـو أيضا فقيه مصرى من فقهاء المالكية عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد .

ويمكن أن نجعل مؤلفاته النثرية فى قسمين : قسم اللغة وقسم الفقه .

I. اللغـــة :

I ـ « القول المانوس بتحرير ما فى القاموس » وهو حاشية على القـاموس المحيط للفيروزابادى ، أولها « الحمد لله الذى زين من أراد بالتحلى بأشرف اللغات ... » فرغ من جمعها فى الحادى عشـر من ذى القعـدة سنـة 970 هـ (3 / 7 / 1563 م) نسخة من مجلد (بقلم عادى) بها حزم رقم : نس I ج I ن خ 43 ن ع 4037 ، ونسخة أخرى فى مجلد (بقلـم عـادى) بخط المؤلف عليها تخاريج رقمها : نس I ج I ن خ I2 ن ع 7179 (28) وقد طبعت نبذ منها بهامش القاموس طبعة بولاق 3 / I301 (29) .

2 ـ « بهجة النفوس بين الصحاح والقاموس » تاليف بدر الدين القرافى المصرى المالكى المتوفى سنة I008 ثمان وألف (30) .

3 ـ « التحرير الفريد فى تحقيق التوكيد والتأكيد » رسالة أولها « الحمد لله لوليه ... » الخ (3I) . (يتبـع)

---

(27) انظر تعليق 8 .

(28) فهرست الخديوية ج 4 ص I79 .

(29) انظر معجم المطبوعات العربية والمعربة ص I502 .

(30) ايضاح المكنون للبغدادى ج I ص 204 .

أصداء الفكر

● **مهرجان قصور الساف ـ سلقطة**

انتظم من 28 الى 30 أوت 1979 مهرجان قصور الساف سلقطة الذى نظمته بلدية قصور الساف بالتعاون مع المعتمدية واللجنة الثقافية . وقد افتتح هذا المهرجان السيد محمد اليعلاوى وزير الشؤون الثقافية واستمع مع الحاضرين الى محاضرة للاستاذ البشير بن سلامة رئيس تحرير مجلة الفكر ورئيس بلدية قصور الساف حول ازمة الفكر العربى المعاصر . وكانت فرصة أتيحت لعديد من الحاضرين للتناقش فى محتوى هذه المحاضرة وأثرى السيد وزير الشؤون الثقافية النقاش بآرائه ونوه بما تلقاه الثقافة من عناية فى ربوع قصور الساف

واحتوى هذا المهرجان على تظاهرات رياضية وفنية وفكرية ألقت على مدينة قصور الساف ومصطافيها سلقطة البهجة والمرح واشركت كل المواطنين فى هذه التظاهرات .

وكان خطاب الاستاذ محمد مزالى تتويجا لهذا المهرجان اذ عالج فيه العلاقة بين السياسة والثقافة (سننشره قريبا على صفحات مجلة الفكر ان شاء الله) وكذلك الندوة التاريخية التى التأمت بالمناسبة وشارك فيها الاساتذة العلماء عز الدين باش شاوش ومحمد فنطر والهادى سليم وكانت فرصة لابراز ما كان لهذه المنطقة من اشعاع فى الفترة الرومانية والاسلامية قديما .

● **الاستاذ محمد مزالى ينتخب رئيسا للجنة الدولية لالعاب البحر المتوسط**

انتخب الاستاذ محمد مزالى مدير مجلة الفكر ووزير التربية القومية رئيسا للجنة التنفيذية لالعاب البحر المتوسط أثناء انعقاد دورة هذه الالعاب الاخيرة بمدينة سبليت اليوغسلافية . ونحن اذ نهنىء الاستاذ محمد مزالى على هذه الثقة العالمية التى تشرف تونس وبالتالى الامة العربية فاننا نحيى فيه أيضا رجل الفكر الذى يؤمن بأن الرياضة من حيث هى ضبط للنفس وسيطرة على قوة البدن وتنافس شريف مع الغير هى ثقافة باتم معنى الكلمة تثرى

النفوس وتعلمها القيم الخالدة التى ما انفك يناضل من اجلهـا الانسـان فى سبيل أن تكون الكلمة الاخيرة للخير والحق والجمال .

ولا يفوتنا أيضا ان نسجل بكل اعتزاز ونبتهج لهذا الخبر الذى صاحب انتخاب الاستاذ محمد مزالى رئيسا لالعاب البحر المتوسـط والمتمثل فـى اقرار اللغة العربية لغة رسمية الى جانب اللغات الاخرى ، اللغتين الانقليزية والفرنسية فهنيئا لاهل الضاد بهذا الكسب المزدوج .

● شاعر تونسى يترأس لجنة تحكيم دولية :

أسندت الجائزة الدولية الكبرى للشعر فى شهر سبتمبر 1979 الى الشاعر البلجيكى ادمـون فنـدر كامـن (Edmond Vander cammen) . وقد ترأس لجنة التحكيم الدولية شاعر تونسى هو عبد العزيز قاسم . وقد صرح بان إسنـاد الجائزة الكبرى فى المستقبل الى شاعر عربى فكرة قد أخذت طريق التحقيق .

● بلا رجل مجموعة قصصية للكاتبة حياة بن الشيخ

صدرت عن مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع مجموعـة قصصية للكاتبة البارعة حياة ابن الشيخ . وان صدور هذه المجموعة الى جانب أعمال أدبية اخرى نسوية يعد كسبا جديدا للادب التونسى واثراء له نظرا الى ما وصل اليه محتوى ادب حياة ابن الشيخ من أبعاد انسانية رائعة .

فهنيئا للاديبة حياة بن الشيخ بهذا الفوز ولعله يكون بلسما لما فى الاهداء من ألم ولعله ينزل بردا وسلاما على هذه «الجمرات من آلاف البراكين المستعرة» ولعله يكون حافزا لمزيد من الادب الجميل الحى .

● انسان

هذه مجموعة شعرية للاديب أنور عدى السورى أهدانا اياها . نشكره على هديته وهو الذى قال فيه صديقنا الشاعر محمد منذر لطفى انه « برهن عن اصالة عفوية .

وهذا ما جعل لقصائده ظلالا صـوفية ولا أسمـى ، وأنسامـا روحيـه ولا أندى ... انه والحق يقال شاعر فيلسوف تأسرك فى شعره الومضات المشرقة والمواقف الانسانية فتستغرق فيها كما يستغرق الناسك فى صلاته » .

● كتب جديدة تصدر عن وزارة التربية القومية

علمنا ان ما يقرب من 13 كتابا مدرسيا يتعلق باللغة والآداب العربية علاوة

على كتب المواد الاخرى صدرت عن وزارة التربية لتلامذة التعليم الثانوى . ولقد طالعنا البعض من هذه الكتب ولمسنا فيها تصورا جديدا لتدريس اللغة العربية وآدابها يمكن لنا أن نعده بحق ثورة خلاقة فى برامج التعليم .

وتمثلت هذه الثورة فى خروج برامج العربية من النصوص الادبية او اللغوية البحتة الى نصوص حضارية تعالج قضايا العصر ومشاكله وتربط الشاب التونسى بواقع مجتمعه وبواقع العالم وتجعله يشعر بانتمائه واعى الانتماء بحضارته العربية الاسلامية وحضارة العالم .

والوجه الثانى من هذه الثورة يتمثل فى أن عددا كبيرا من نصوص هذه الكتب يرجع الى كتاب وأدباء تونسيين . ولعله من الواجب أن نذكر بأن ما قامت به وزارة التربية مشكورة اتخذ نفس الاتجاه الذى رسمه اتحاد الكتاب فى ندوته المنعقدة بنزل افريقيا سنة 1976 تحت عنوان : الادب التونسى منزلته ودوره فى التعليم والثقافة » وقد حددت هذه الندوة ما يجب القيام به فى ميدان التعليم وفى ميدان الثقافة . وان ما رايناه من خلال هذه الكتب الجديدة من سعى الى تطبيق مقررات هذه الندوة فى ميدان التعليم ليثلج الصدر ويدعونا الى التوجه الى كل اطارات التربية بالشكر والتهنئة على توفقهم الى بلورة أفكار بقيت طويلا لا تجد من يتحمس لها ويجسمها بهذه الصورة الرائعة ويدعونا كذلك الى شكر السيد وزير التربية القومية وتهنئته . ونحن نعد القراء أننا سنخصص فى عدد قادم صفحات لابراز ما نشرته وزارة التربية من كتب جديدة لا فيما يخص مادة اللغة والآداب العربية بل فيما يتعلق أيضا بمواد أخرى كالتاريخ والجغرافيا وغيرهما . وبهذا يمكن لنا أن نطمئن الى أن برامجنا التعليمية انما تكون حقيقة رجال الغد الغيورين على أصالتهم والضاربين فى حضارة العصر بألف سهم وسهم .

● **من وحى الفكر فى جريدة المدينة المنورة** . خصصت جريدة المدينة المنورة الصادرة بتاريخ 21 شوال 1399 (12 سبتمبر 1979) صفحة عن الطبعة الثانية من كتاب من وحى الفكر للاستاذ محمد مزالى جاءت فيها ما يلى :

محمد مزالى وزير التربية القومية التونسى يعتبر من المفكرين العرب الافذاذ وهو الى جانب نشاطاته السياسية يكتب باستمرار فى شؤون الفكر والادب والفلسفة وله آراء هامة فى مسألة تعريب التعليم فى تونس .

ومحمد مزالى هو صاحب مجلة « الفكر » وهى مجلة بارزة فى الادب تعتبر

النافذة التي يطل منها العرب على الحركة الادبية في تونس وهي تصدر باستمرار منذ سنة 1955 وتوزع في مختلف انحاء الوطن العربي .

وقد سبق لمحمد مزالي ان جمع كل الافتتاحيات في مجلة « الفكر » ونشرها في كتاب اختار له اسم « من وحي الفكر » فأحدث به ضجة في عالم الفكر والادب واهتم به النقاد وابرزوا قيمته ومؤثراته .

ونفدت طبعة الكتاب منذ مدة فطلب من المؤلف اعادة نشر الكتاب نظرا لطلبات القراء المتكررة فوافق محمد مزالي على اعادة الطبع وخرج الكتاب للاسواق هذه الايام في ثوب جديد يحتوي على 365 صفحة من الحجم الكبير ويضم فصلا في مسائل شتى مبوبة الى تسعة أقسام وهي على التوالي :

ـ في سبيل الوطن ـ في سبيل المغرب العربي .. ـ مع الثورة الجزائرية ـ شخصيات تونسية .. ـ قضايا ومواقف ـ في التعليم والتربية ـ شؤون الثقافة ـ فنون الادب . ـ مناهج الفكر وشؤونها ..

وقدم محمد مزالي بنفسه كتاب « من وحي الفكر » قال عنه بأنه فيض المشاعر في ظروف دقيقة من حياة الامة العربية أملتها الاحداث التي كنا نعيشها في تونس بين سنوات 1955 و 1968 .

وهذه المقالات التي يضمها الكتاب واكبت طموحات الشعب التونسي وعبرت عن آماله وجهاده في سبيل النهوض بالمجتمع التونسي والدفاع عن مقوماته الحضارية والثقافية ..

وفي هذه المقالات نادى محمد مزالي بجلاء الجيوش الفرنسية عن التراب التونسي وفيها بارك الجلاء النهائي عن الاراضي التونسية وأبرز أبعاد ذلك في نفوس الشعب وما يرمز اليه من تكسير للاحتلال وسمو الى منزلة الحرية وشعور باسترجاع الحق السليب والكرامة المداسة .

وعبر نفس هذه المقالات التي ضمها الكتاب ساند محمد مزالي كفاح الشعب الجزائري الشقيق الذي خاض أروع ملحمة وأقساها ضد ضرب من ضروب الاستعمار البغيض لا أبشع ولا أقسى منه استعمار ..

وأبرز محمد مزالي تعلقه بوحدة المغرب العربي كجزء متكامل من أمتنا

العربية نسجت لحمته أحقاب التاريخ المتتابعة ووحدت بين شعوبه لغة واحدة ودين واحد وحضارة مشتركة وكفاح طويل ضد مستعمر عنيد ..

وفي هذه المقالات أيضا عبر محمد مزالي الى أن ارادة الشعوب لا تقهر مهما اشتد العنف وقسا وان الحق يعلو مهما تعددت أسباب الكبت والتحليل وان أمل الامة جذوة لا تنطفي لانها نور من الله والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وبالنسبة لمحمد مزالي فان العودة الى هذه المقالات ومطالعتها من جديد انعاش للذاكرة واسترسال الى التأمل في مواكب الايام بما كانت تعج به من أحداث وتنطوي عليه من أسرار وأن في الكثير منها لعبرة ودرسا بل ان من المسائل ما اذا أنت استحضرتها وقربتها اليك شعرت بأنها حية نابضة لم يبلها الزمن ولم تحد من طرافتها الايام لانها نابعة من روح الشعب متعلقة بأبعاد مطامحه وأحلامه ...

وفي رأينا أن هذا الكتاب الذي حلل أبعاده الاستاذ البشير بن سلامة في دراسة وقع ضمها ضمن صفحاته ،، هو تعبير عن اختيار واضح اتخذه محمد مزالي منهجا في حياته النضالية المتنوعة بين نضال ضد الاستعمار ونضال ضد التخلف والظلم ومن أجل الحرية والانصاف .

وهذا الاختيار هو توازن بناء مثمر « ينم في جوهره على صراع مكين ، صراع حي بين أسمى مقتضيات الفكر وأنهل دواعي الواقع » ، « صراع يتجلى في الكون والايمان المطلق للفكر ثم في آن واحد الانفلات من سجنه والانسلال من أسره وقيده » .

ولعل ما كتبه صاحب مجلة « الفكر » سنة 1953 يدل على هذا المعنى في قوله أرى أن النسق الفكري مهما كانت حكمة صاحبه ورجاحة عقله يفيد الفكر نفسه ويسجن العقل ذاته ، فلا يرتاح المفكر تماما الى نتائجه ولا يقول قد أدركت الحقيقة المطلقة ولا حقيقة وراءها وحصل لي اليقين الذي ليس بعده يقين فاذا هو فعل ذلك يكون قد تعب في اقامة سجنه بنفسه حجرة حجرة ليمكث فيه طول العمر من حيث لا يدري وما أكثر السجون الممتازة المؤثثة المفروشة التي يتعذر عليك التمييز بينها وبين منزلك ...

ويقول الاستاذ البشير بن سلامة : « هذا الخوف من سجن الفكر هو الذي قاد الاستاذ محمد مزالي في كتابته لافتتاحيات المجلة الى التوازن البناء وهو

فى الحقيقة خوف من الفلسفة بمعناها التقليدى وانفلات منها الى طلاقة الفكر ومرونته واتعاظه بالواقع وبمقتضيات الحياة واعلان لنهاية عهد الفلسفة المكبل المقيد ، وفتح جرىء لاحلال مد الفكر اليقظ المتحرر المنساب فى عوالم الخلق والشعر والبناء مكان سجن المذاهب المقننة المحنطة » .

وفى هذه الافتتاحيات نكتشف فان الاستاذ محمد مزالى قد فتح مجلته منذ صدورها فى عددها الاول لكل الاتجاهات والتيارات الادبية فى تونس والبلدان العربية الشقيقة ونحن نتساءل مع البشير بن سلامة : كيف يستقيم فى الميدان الادبى توازن جل الاتجاهات وكيف أمكن لمحمد مزالى ان يفتح مجلته لمختلف المدارس ولمتعدد الاتجاهات من دون ان يناقض نفسه ويتضارب مع التزامه .؟

ان محمد مزالى يعتقد ان الاديب الخلاق ليس فى « حل من قومه » وأنه يجب التفريق بين الاديب والمواطن بين ضرورتين اثنتين : « بين وجوب رعاية حرمة الادب الاصيل وضمانها حرية الاديب وصون تجربة الخلق والابداع التى لابد منها لكل عمل أدبى انسانى طريف ، وبين منزلة الانسان المشخصة فى حدود الزمان والمكان الماثلة أمام كل حس مرهف وضمير حى وعقل يقظ » .

ويعتقد محمد مزالى كذلك ان قضية الالتزام فى الادب هى قضيـة الادب واللا أدب وهذا يعنى ان المعايير التى يخضع لها العمل الادبى هى من جنس معين وأنه ليس لاحد أن يسلط عليه مقاييس سياسية أو حتى علمية .. وترد كل هذا فى الحقيقة الى مفهوم طالما نادى به محمد مزالى وهو مسؤولية الكاتب ، اذ يكفى ان يكون الاديب شاعرا بمسؤوليته فى مجتمعه لينتقى كل نقاش فى هذا المجال ، ويكون « الادب التونسى بذلك أدبا حرا ينبع من طرافة الشخص ويستمد من ثروته الكامنة وعبقريته الاصيلة .. ولكنه يقرر مع ذلك مسؤولية الكاتب ويقيمه بالرجوع الى المصلحة العامة والشعور بالتضامن مع الوطن والانسانية عامة » ..

وننتهى بما قاله الاستاذ البشير بن سلامة « ان المتصفح للكتاب والمطلع عليه لا كأجزاء بل ككل يلمس توازنا فى جميع المواقف من قضايا تشغل بال جميع أهل الارض مثل الاصالة والالتزام والدين والادب والحرية .. ومن السهل عليه ايضا ان يدرك مدى الوضوح الذى عالج به الاستاذ محمد مزالى مشاكل الثقافة وفنون الادب وشؤون الوطن وغيرها ...

● الكاتب المتمرد

هذا الكتاب من تاليف الكاتب المغربى مصطفى النهيـرى وهو عبـارة عن دراسات فكرية فى « الانسان والادب والقيم والاجتماع والصحافة والهيمنة »

● **التفتح :**

تحت هذا العنوان يصدر نادى الادب والتاريخ والآثار بالشابة مجلة ثقافية جامعة تحت اشراف اللجنة الثقافية المحلية بالشابة ، وقد وصلنا عدد منهـا يحمل بين طياته عديد الدراسات والقصائد منها : نحو تركيز عمل ثقافى جديد بقلم محمد الزاهى وهى افتتاحية المجلة . ودراسة بعنوان : ابو الفرج الاصبهانى وكتابه الاغانى بقلم : منصور الجربى . ودراسة بعنوان : نظـرات فى الشعـر العربى بقلم : ناجى التباب .

ونتمى لهذه المجلة التواصل والاستمرار فى ظل الاعمال الثقافية الجديدة من أدب وتاريخ وآثار .

● **الرحلة فى الابيات :**

مجموعة شعرية جديدة للاستاذ رياض المرزوقى تحت عنوان « الرحلة فى الابيات » من اصدار الدار التونسية للنشر تحتوى على 87 صفحة وتضم 36 قصيدة وتتميز هذه القصائد بقصر النفس ، والحفاظ على مقومات الشعـر الاصيل مع ما فيها من « بحث عن الحقيقة واستقصاء للجمال »

نتمنى للشاعر مزيدا من العطاء الناضج ، وأن يكون واعدا بالاستمرار .

● **ابحاث فى الادب والتاريخ :**

نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ومن تاليف الاستاذ أحمد الطويلى وهو عبارة عن كتاب يعالج عديد المواضيع فى الادب والتاريخ منهـا « مسرحيات شوقى بين التاريخ والخيال » و «وثيقة زواج الحبيب باى بخادمته» ومنها دراسة قيمة عن شاعر الاصالة والتحرر الافريقى **ايمى سيزار** وهذا الكتاب فى الجملة هو جمع لدراسات كان نشرها المؤلف فى الصحف والمجـلات التونسية خلال السنين القليلة الماضية

● **حوار الابعاد :**

أهدانا الشاعر مصطفى النجار (حلب) مجموعة شعرية مشتركة بينه وبين سمير ددم (سوريا) وحسين على محمد (مصر) ومحمد سعيد بيومى (مصر) وتحمل هذه المجموعة عنوان : « حوار الابعاد »

ونحن اذ نشكر الصديق مصطفى على هديته نتمنى لهذه الاعمال الادبيـة المشتركة أن تؤتى اكلها كل حين ، وأن تتواصل كبداية لتلاحم اقطار الوطن العربى منطلقا وغاية من أجل الانسان العربى وآماله وطموحاته الى غد حضارى مجيد .